من لطائف الفصل والوصل فى التركيب القرآنى

سورة المدثر نموذجا

بقلم الدكتورة
ابتسام محمد فيود

من لطائف الفصل والوصل فى التركيب القرآنى سورة المدثر نموذجا

بقلم الدكتورة

ابتسام محمد فيود

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، مالك الخلق أجمعين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين وأشرف الخلق أجمعين ، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين .

وبعد

فإن هذا البحث يدور حول فن جليل من فنون القول عامة والبلاغة خاصة وهو فن الفصل والوصل ، وحين أذكره بأنه فن لم أرد تجميله أو إصابة التعبير البلاغى عنه ، ولكن قصدت بيان قيمته من بين ضروب القول ؛ لأن الكلام لا يبنى إلا عليه ، ولا يتصور من دونه ؛ لذا وجدنا علماءنا منذ القدم يعدونه حدا للبلاغة ويصفونه بأنه باب خفى غامض ودقيق صعب لا يتأتى إلا لمن أوتى حظا عظيما من حسن الذوق والذكاء .

وعملى فى هذا البحث هو الجمع فى دراسته بين النظرية والتطبيق من حيث معالجة بعض القضايا المختلف عليها فيه ، واستجلاء ما أشكل وغمض منه فى بحث مختص ، ثم تقديم دراسة تطبيقية على سورة (المدثر) وهى سورة كريمة مثلها مثل سور

القرآن الكريم وردت بأساليب مختلفة وطرائق متنوعة ، غاية فى الروعة والبيان ، تنبىء عن عظمة منزل هذا الكتاب وإعجازه ، حيث يورد سبحانه الأسلوب المناسب فى المكان المناسب ، وينتقل من نوع إلى آخر انتقالا عجيبا يكشف عن تناسق قوى وترابط متين بين الآيات المختلفة المعانى ، علاوة على أنها مفتتحة بأول ما نزل من القرآن الكريم ، فهو أول حديث من الله تعالى إلى نبيه- ﷺ - .

وقد رأيت فى هذه الدراسة التطبيقية أن دمج مواضع الفصل والوصل أولى من دراسة كل منهما على حدة حتى لا تنقطع أواصر الأسباب بين الآيات الكريمة ، وتظل أسرارها البلاغية متصلة تامة فى المفصول منها والموصول ، ولا يكون كل صنف منه بمعزل عن بيان سر قسيمه الآخر.

ولا أدعى أنى أول من يقوم بمثل هذا العمل ، بل سبق إليه أساتذة وعلماء أجلاء ، ولا شك أننى أفدت منهم إفادة عظيمة ، ولكن يبقى مثل هذا الموضوع نادرا أو قليلا اختصاصه بالتأليف فيه ، مما قوى فى نفسى الدافع إلى العمل فيه ، علاوة على ما عرف عن الموضوع ذاته من أهمية كبرى ، وعظيم شأن ودقة وصعوبة فى مسلكه ، وقد حاولت الاجتهاد فيه قدر ما وفقنى الله بغرض خدمة كتاب الله الكريم ولغته التى شرفها الله بنزوله بها ، آملة من المولى عز وجل أن يثيبنى على هذا العمل ، ويجعله فى ميزان حسناتى ، إنه سميع مجيب .

التمهيد

بلاغة القول قضية لفتت انتباه القدماء من شتى الأجناس خاصة بعد معرفة القرآن الكريم والتنبه إلى خواصه وتراكيبه ، وشغلت أذهانهم منذ القدم ، فراحوا يبحثون عن أسباب تلك البلاغة ، من أين أتت ومن أى شىء حصلت ، لذا ظهرت رؤى كثيرة تصور ماهية البلاغة ،ومعرفة حدها الذى تبنى عليه ، وتساءل بعضهم البعض ما البلاغة ؟

فقال الفارسى : معرفة الفصل من الوصل .

وقال اليونانى: تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام .

وقال الرومى: حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة.

وقال الهندى: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة.

وقال رجل عربى يدعى مرة : جماع البلاغة التماس حسن الموقع ، والمعرفة بساعات القول ، وقلة الخرق بما التبس من المعانى أو غمض، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر .

وقال الأعرابى: الإيجاز فى غير عجز والإطناب فى غير خطل...[١]

"ومعنى ذلك أن الفرس يرون أن معرفة الفصل من الوصل هى جماع البلاغة ، وهى التى تحيط بأركانها وتجمع أسبابها وتلم أطرافها"[٢]، ولا مانع "فالبلاغة ليست مقصورة على أمة دون أمة ولا على لسان دون لسان، بل هى مقسومة على أكثر الألسنة ، فهم فيها مشتركون ...ولكنها فى العرب أكثر لكثرة تصرفها"[٣] ولأنها أوفى

(١) ينظر البيان والتبيين ج١/ ٨٨ ، ٩٧ .
(٢) علم المعانى ، د/ درويش الجندى ص : ١٨٧.
(٣) ينظر أثر النحاة فى البحث البلاغى ص : ٣٨٣ .

وأشمل ، يدل على هذا أنه حين سئل اليونانى والفارسى والهندى والرومى عن البلاغة أجابه كل بما يتفق مع نظرته لها .

ولعل هذه الرؤى كانت هى البذرة التى أنتجت المباحث البلاغية المختلفة فيما بعد ، والتى أخذت تنمو وتزدهر بفضل عناية العلماء بشرحها وتحديدها والتوسع فيها حتى كادوا لا يغفلون شيئا منها ، وجعلت الفصل والوصل يحتل مكانة كبيرة فى تقدير علماء البلاغة حتى عدوه حدا لها والإلمام به طريق للمعرفة بها ودليل على التمكن منها ، ووسموه بأنه طريق صعب المسلك دقيق المأخذ لا يستطيعه إلا من أوتى فنا من القول ورزق ذوقا سليما، وهو سر البلاغة وكمال سائر معانيها .

وقد كان فصحاء العرب وبلغاؤهم أشد ما يكون حرصا على مراعاة مواطنه فى رسائلهم وخطبهم وسائر كلامهم ، يشددون على مراعاته ويعيبون عدم الاكتراث به ؛ ذلك لأن إدراكهم للأساليب كان حسا وجدانيا ومنطقا عقليا قبل أن يكون نظاما تقعيديا .

فقد روى أن المأمون قال : إن البلاغة إذا اعتزلتها المعرفة بمواضع الفصل والوصل كانت كاللآلىء بلا نظام وقال الأحنف بن قيس ما رأيت رجلا تكلم فأحسن الوقوف عند مقاطع الكلام ، ولا عرف حدوده إلا عمرو بن العاص – ﷺ – كان إذا تكلم تفقد مقاطع الكلام ، وأعطى حق المقام ، وقال معاوية : يا أشدق ، قم عند قروم العرب وجحاجحها ، فسل لسانك ، وجل فى ميادين البلاغة ، وليكن التفقد لمقاطع الكلام منك على بال فإنى شهدت رسول الله –ﷺ – أملى على علىِ بن أبى طالب . ﷺ. كتابا ، وكان يتفقد مقاطع الكلام كتفقد المصرم صريمته ، وكان يزيد بن معاوية يقول : إياكم أن تجعلوا الفصل وصلا ، فإنه أشد وأعيب من اللحن ، وكان أكثم بن صيفى إذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكتابه افصلوا بين كل معنى منقض وصلوا

إذا كان الكلام معجونا بعضه ببعض ، وقال الحسن بن سهل لكاتبه الحرانى : ما منزلة الكاتب فى قوله وفعله ؟ قال أن يكون مطبوعا محتنكا بالتجربة ، علاما بحلال الكتاب والسنة وحرامها ... مع براعة اللفظ وحسن التنسيق ، وتأليف الأوصال بمشاكلة الاستعارة ... وبمقاطع الكلام ، ومعرفة الفصل والوصل فإذا كان ذلك كذلك فهو كاتب مجيد ، وكان شبيب بن شيبة يقول : وخير الكلام ما وقف عند مقاطعه ، وبين موقع فصوله(١).

وإذا أردنا أن نقف على أطوار نشأته لم نجد له تحديدا واضحا فى كتب الأدب والبلاغة الأولى ، بل إن بعضها يخلو تماما من الإشارة إليه إلا إشارات يسيرة مثلما ورد عند الجاحظ (ت٢٥٥هـ) ومثله ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) والمبرد (ت ٢٨٥ هـ) ويعد أبو هلال العسكرى (ت ٣٩٥ هـ) هو أول من توقف عنده واهتم به ولفت الأنظار إليه ، حيث بين مدى ضرورة الكاتب والخطيب والشاعر إلى معرفة مواضعه ، وأفرد بابا للحديث عنه ساق فيه الكثير من الشواهد والنصوص إلا أنه لم يضع الحد الفاصل فيه والتعريف المنظم له والترتيب المبين لأحواله ، لكننا نجد هذا عند عبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١ هـ) ؛ فهو يعد المؤسس لمبحث الفصل والوصل وفق نسق مفصل واضح المعالم يقوم على التعريف والتقسيم و التحليل و التعليل رابطا إياه بالعطف عارضا له فى إطار نظريته فى النظم يقول: "اعلم أن العلم بما ينبغى أن يصنع فى الجمل من عطف بعضها على بعض ، أو ترك العطف فيها و المجىء بها منثورة تستأنف الواحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة ، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلص ، و إلا قوم طبعوا على البلاغة ، وأوتوا فنا من المعرفة فى ذوق الكلام هم بها

(١) ينظر الصناعتين ص : ٢٩٩ – ٣٠٢ .

أفراد ...ذاك لغموضه ودقة مسلكه، وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معانى البلاغة"[١].

وقد انتفع بجهوده من جاء بعده من علماء البلاغة محددين لمعالمه مستفيضين فى الحديث عن أحواله و مواضعه بشىء أكثر مما ورد عند عبد القاهر كالسكاكى (ت ٦٢٦ هـ) و الخطيب القزوينى (ت٧٣٩هـ) وشراح التلخيص و من أتوا بعدهم حتى اتسعت دائرة البحث وعد مبحثا مهما من مباحث علم المعانى .

ويقوم بحث الفصل والوصل على استعمال العطف بين الكلام أو عدم استعماله، والعطف على نوعين: عطف نسق وعطف بيان، والمقصود به فى هذا البحث هو عطف النسق الذى يكون بالحرف و "حظ علم النحو فيه التشريك فى الإعراب فى سائر حروفه، والتشريك فى الحكم فى بعضها ، وحظ علم المعانى منه إفادة هذا مع قصد التفضيل فى المسند إليه أو المسند والاختصار فى اللفظ ، ولا يكون هذا إلا لدواع فى الكلام لا شأن للنحو بها"[٢] .

وقد أجمل عبد القاهر مواضع الفصل والوصل فى الجمل على ثلاثة أضرب[٣]:

١ – جملة حالها مع التى قبلها حال الصفة مع الموصوف ، والتأكيد مع المؤكد فلا يكون فيها العطف البتة ؛ لشبه العطف فيها بعطف الشىء على نفسه .

---

(١) دلائل الإعجاز ص : ٢٢٢ .
(٢) البلاغة العالية – علم المعانى – عبد التعال الصعيدى ص : ٩٥،٩٦ .
(٣) دلائل الإعجاز ص: ٢٤٣.

٢ – وجملة حالها مع التى قبلها حال الاسم يكون غير الذى قبله ، إلا أنه يشاركه فى الحكم ويدخل معه فى معنى ، مثل أن يكون كلا الاسمين فاعلا أو مفعولا أو ومضافا إليه فيكون حقها العطف .

٣ – وجملة ليست فى شىء من الحالين ، بل سبيلها مع التى قبلها سبيل الاسم مع الاسم لايكون منه فى شىء ، فلا يكون إياه ، ولا مشاركة له فى معنى ، بل هو شىء إن ذكر لم يذكره إلا بأمر

ينفرد به ، و يكون ذكر الذى قبله و ترك الذكر سواء فى حاله ؛ لعدم التعلق بينه و بينه رأسا ، وحق هذا ترك العطف البتة ، فترك العطف يكون :

١ – إما للاتصال للغاية .

٢ – أو للانفصال للغاية .

٣ – و العطف لما هو واسطة بين الأمرين وكان له حال بين الحالين .

وتفسير ذلك كما هو معروف عند البلاغيين بمواضع الوصل وهى:

١ – العطف للتشريك فى الحكم الإعرابى .

٢ – التوسط بين الكمالين وهو أن تتفق الجملتان فى الخبر والإنشاء و تكون بينهما مناسبة ولا يوجد مانع من الوصل .

٣ – كمال الانقطاع عند إيهام الفصل خلاف المقصود.

ومواضع الفصل وهى :

١ – كمال الانقطاع بلا إيهام : بأن تختلف الجملتان فى الخبر والإنشاء أو لا تكون بينهما مناسبة بشرط ألا يوهم الفصل خلاف المقصود .

٢ – كمال الاتصال : بأن تكون الجملة الثانية توكيدا للأولى أو بدلا منها أو عطف بيان لها .

٣ – شبه كمال الاتصال أو الاستئناف : بأن تكون الجملة الثانية جوابا عن سؤال اقتضته الجملة الأولى .

٤ – شبه كمال الانقطاع : وهو أن توجد ثلاث جمل أولى وثانية وثالثة ولا يصح عطف الثالثة على الثانية التى تجاورها وتسبقها مباشرة ، لأن قائلهما متعدد ولا توجد بينهما مناسبة ، فالعطف حينئذ يفسد المعنى .

٥ – التوسط بين الكمالين مع وجود المانع من الوصل : وهو أن تتفق الجملتان فى الخبرية والإنشائية ويوجد بينهما مناسبة وجهة جامعة ولكنهما يفصلان ؛ لأن الجملة الثانية لا تشارك الأولى فى حكمها الإعرابى كما أن قائلها مختلف(١).

(١) ينظر علم المعانى، د/ حمزة الدمرداش ص :٦٤ إلى ٦٦.

أولا : الدراسة النظرية

الفصل والوصل وبيان قيمتهما

الفصل لغة: مصدر فصل، والفصل بون ما بين الشيئين ، والفصل من الجسد : موضع المفصل ، والمفصل: واحد مفاصل الأعضاء وهو كل ملتقى عظمين من الجسد ، وبين كل فصلين وصل ومنه ما أنشده الليث :

وصلا وفصلا وتجميعا ومفترقا ∴ فتقا ورتقا وتأليفا لإنسان

والفصل : الحاجز بين الشيئين، وفصلت الشيء فانفصل أى قطعته فانقطع، والتفصيل التبيين، وقوله عزوجل: ژ ب بژ[1] **له معنيان : أحدهما تفصيل آياته بالفواصل ، والمعنى الثانى فصلناه بيناه ، وقوله سبحانه وتعالى:** ژ چ چ ژ [2] **بين كل آيتين فصل تمضى هذه وتأتى هذه ، بين كل آيتين مهلة ، وقيل مفصلات أى مبينات ، وسمى المفصَل مفصَلا لقصر أعداد سوره من الآى**[3] .

الوصل لغة : مصدر وصلت الشيء وصلا وصلة ، و والوصل خلاف الفصل ، وصل الشيء بالشيء يصله وصلا وصلة وصله : لأمه، وفى التنزيل العزيز: ژ ٱ ب ب پ پ ژ [4] **أى وصلنا ذكر الأنبياء وأقاصيص من مضى بعضها ببعض لعلهم يعتبرون ، واتصل الشيء بالشيء : لم ينقطع ، ووصل الشيء إلى الشيء وصولا إليه :**

---

(١) سورة الأعراف آية : ٥٢.
(٢) سورة الأعراف آية : ١٣٣.
(٣) لسان العرب جـ ٥ / ٣٤٢٤.
(٤) سورة القصص آية : ٥١ .

انتهى إليه وبلغه ، والوصلة : ما اتصل بالشيء ، والتواصل ضد التصارم ، والأوصال المفاصل[١].

على الرغم من ضدية اللفظين حيث معنى الوصل : اللأم والتضام والاتصال ، والفصل يعنى القطع والبون والانفصال نجدهما يتعلقان تعلقا وشيجا ببعضهما فلا يذكر أحدهما إلا والآخر قرين له فى الذهن كما ترى فى التعريف اللغوى " وبين كل فصلين وصل ، وما أنشده الليث : وصلا وفصلا وتجميعا ..." وأحيانا يتحد الاستعمال بينهما كما فى " المفصل : واحد مفاصل الأعضاء ، وهو كل ملتقى عظمين من الجسد ، والأوصال : المفاصل أى الأعضاء والواحد وُصل " إذاً هما دائما مقترنان فى الذهن وبالتالى جاء الاقتران بينهما فى المعرفة بهما .

ويعرفان فى الاصطلاح مرتبطان بموضوع العطف فالعلم بهما هو "العلم بمواضع العطف والاستئناف أو التهدى إلى كيفية إيقاع حروف العطف فى مواقعها أو تركها عند عدم الحاجة إليها"[٢] .

وتكمن أهمية الفصل والوصل بالنسبة للكلام فى أنه يبنى بواسطتهما وعليهما مداره وهما رباطه المؤدى إلى صحة النطق به ومن ثم التوصل إلى فهمه ومعرفة المراد منه ، ألا ترى أن أى كلام صحيح يأتى إما موصولا بحرف عطف أو مفصولا متتابعا من دون عطف ومن هنا جاء قولهم بإن البلاغة هى معرفة الفصل من الوصل، حيث إن معنى البلاغة مأخوذ من قولهم بلغت الغاية إذا انتهيت إليها فهى كل " ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه فى نفسه لتمكينه فى نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن"[٣] .

---

(١) ينظر اللسان جـ ٦ /٤٨٥٠ .
(٢) علوم البلاغة للمراغى : ١٦٧.
(٣) الصناعتين ص : ٦ .

وما ورد عن القدماء من قصر البلاغة على معرفة الفصل والوصل لم يكن إلا لذلك ، وكما قال بهاء الدين السبكى لا يقصدون بها حقيقة الحد ولا الرسم، وإنما كانوا يقصدون ذكر أوصاف للبلاغة، والتنويه ببعض ما يستحق من نواحيها(١).

وإذا كان النحاة قد عناهم فى استعمال حروف العطف وتركها الصواب والخطأ ، فإن البلاغيين يعنيهم معرفة الحسن والقبح فى هذا الاستعمال لبيان مدى تحقق الجمال فى التراكيب المختلفة ، وبيان سر هذا الجمال ، وأكثر البلاغيين على أن الوصل مختص بالواو؛ لأنها للجمع المطلق بين المتعاطفين أى لمجرد الاشتراك بينهما دون تحديد معنى دائم تفيده فى كل مثال تدخل فيه كباقى حروف العطف .

ومن جهة أخرى فإن صحة العطف مطلقا فى المفردات والجمل بالواو وغيرها مشروط بوجود المناسبة التى تجمع بين الجملة المعطوفة والجملة المعطوفة عليها بحسب المتعارف عند المتكلمين بتلك اللغة كالتماثل أو التضاد وما يشبههما كالتقارن فى الخيال أو فى الغرض المسوق له الكلام ، ونحو ذلك مما يوفر التناسب ، "ولهذا كان العطف بالفاء و ثم و حتى أوسع فى هذه المناسبة المشروطة؛ لأن الترتيب أو المهلة أو الغاية كلها مناسبات كافية لتصحيح العطف؛ لأنها دالة على التقارن فى الوجود وهذا التقارن مهيء للمناسبة ومسوغ للعطف"(٢)، وأكثر قربا لبعضها من حروف العطف الواو والفاء حتى يجوز البعض إمكانية وضع أحدهما مكان الآخر و لكن الأمر خلاف ذلك ، فإذا قلت : خرجت من المنزل وأمطرت السماء " افتقدنا المناسبة بين الجملتين إذ لا جامع بين إمطار السماء و الخروج من

(١) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص جـ ١ /١٣٠. والبلاغة العالية، عبدالمتعال الصعيدى ص : ٥ .
(٢) موجز البلاغة للطاهر بن عاشور ص : ٢٦.

المنزل ، فالعطف بالواو هنا لا يصح وإن صح العطف بالفاء ، فالواو لم تأت هنا لإفادة التشريك بين الجملتين كما يحدد معناها علم النحو ؛ بل جاءت باعتبار أنها أداة وصل لا غير وهذا المعنى الجامع لا يفيده غيرها من حروف العطف، ولذلك فإن العطف بالفاء غير معتبر فى باب الفصل والوصل"[1] لأن الواو مختصة بمعنى معلوم يشير إلى نوع من التناسب ، ومن ثم كان موقعها بين الجمل دقيق وخفى عسير الإدراك، صعب التحديد يعرض فيه الإشكال؛ ولأجل هذا قصروا مبحث الوصل عليها .

ومع هذا فأرى عدم قصر باب الوصل على الواو خاصة ، حتى لا يهمل الوصل بغيرها ، بل ينبغى الاهتمام بحروف العطف الأخرى علاوة على الواو ؛ لأنها لا تعدم هى الأخرى العديد من الأسرار البلاغية وراء استعمالها ، خاصة فى القرآن الكريم الذى هو دائما المنهل العذب فى هذا المجال وغيره .

لذا تجد من المفسرين من أولى عناية خاصة بهذا الحروف؛ لتحديد الفروق فى استعمالها، وأشار إلى بعض الأسرار البلاغية الكامنة ورائها فى معرض الحديث عن الآيات المتشابهة كالكرمانى فى أسرار التكرار، والإسكافى فى درة التنزيل وغيرهما.

(١) البلاغة العالية – علم المعانى – عبد التعال الصعيدى ، المقدمة ص : س .

الفصل والوصل بين البلاغة والنحو

لأسلوب الفصل والوصل جذور وسوابق عند النحاة ، لأن ما يبنى عليه من العطف ، والتأكيد ، والبدل والاستئناف هى موضوعات قد درسها النحويون وعليه تقوم مؤلفاتهم ، و قد بدت أصول هذا الأسلوب فى كتب النحو منذ القدم قبل أن تعرف عند البلاغيين كمصطلح ، فمن ذلك ما نجده عند سيبويه (ت ١٨٠هـ) فى كتابه مما يشير إلى فكرة تقدير السؤال فى موضع القطع – وهو أحد مواطن الفصل عند البلاغيين ويسمونه شبه كمال الاتصال – فى باب بدل المعرفة من النكرة والمعرفة من المعرفة و قطع المعرفة من المعرفة مبتدأة ، يقول :" فقولك : مررت برجل عبدالله ، كأنه قيل : بمن مررت ؟ أو ظن أنه يقال له ذاك ، أو كأنه قيل لك : من هو ؟ أو ظننت ذلك ...ومثل ذلك قوله عزوجل ذكره : ژ ڈ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ژ[١] على تقدير وما هذا الصراط المستقيم؟ فتكون الإجابة صراط الله .

وقد مثل لذلك غير الآية الكريمة بأكثر من مثال من الشعر لإثبات تلك الفكرة ، وهو إن لم يصرح بمصطلح (الفصل) إلا أنه صرح بأن هذا موضع قطع واستئناف[٢]. ويورد ذلك فى باب آخر هو باب ما لايعمل فى المعروف إلا مضمرا يقول : " وإذا قال : عبدالله نعم الرجل ، فهو بمنزلة : عبد الله ذهب أخوه ؛ كأنه قال نعم الرجل فقيل له من هو ؟ فقال : عبد الله و إذا قال عبد الله فكأنه قيل له : ما شأنه ؟ فقال نعم الرجل"[٣].

---

(١) سورة الشورى آية : ٥٢، ٥٣. ينظر الكتاب لسيبويه جـ/ ١٤ وما بعدها .

(٢) ينظر الكتاب لسيبويه جـ ٢ ص :١٤ ، ١٧ .

(٣) الكتاب لسيبويه جـ ٢ ص ١٧٧.

كما أن فكرة البدل أيضا التى يبنى عليها بابه الأول ما هى إلا موضع فصل كذلك وهو ما يعرف عند البلاغيين بكمال الاتصال وإن كان ما مثل به يختص بالمفردات ولكن المفردات كذلك لا يخلو الوصل و الفصل فيها من أسرار بلاغية على ما سيأتى إن شاء الله.

"وقد نقل عن سيبويه أنه أجاز "عطف الجملتين المختلفتين بالاستفهام والخبر ، مثل أن تقول : هذا زيد ومن عمرو؟" (١) ورأيه هذا يخالف ما يعبر عنه البلاغيون بكمال الانقطاع بين الجملتين إذا اختلفا خبرا وإنشاء إذ هو موضع فصل عندهم يمتنع فيه الوصل ، للتباين بين الخبر والإنشاء، أما سيبويه فيجوز الوصل فيه بالعطف والإنشاء وعكسه ، ويرى الشيخ عبد المتعال الصعيدى أنه " حكم نحوى لا يصح أن يعد فى اعتبارات الفصل والوصل ، فهو لا يرجع إلى مقام يقتضيه ... و إنما يرجع إلى منع جمهور النحويين له"(٢)، ويؤيده الدكتور عبد القادر حسين ويرى أنها " مسألة على جانب من الأهمية ... لم تأخذ حظها من الشيوع والانتشار كغيرها من الألوان البلاغية التى ذكرها سيبويه وتلقفها منه العلماء ... والقرآن شاهد على وجود هذه الصورة"(٣) يقصد بذلك ما نقله عن السبكى – وهو مخالف لهذا الرأى – من كلام النحاة عن قوله تعالى : ژ ڃ ڃ ڃ ڃ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈژ ز (٤) من أنه هناك من النحاة من يجوزون عطف الخبر على الإنشاء وعكسه(٥).

(١) أثر النحاة فى البحث البلاغى ص : ١٠٧ .
(٢) البلاغة العالية ص : ١٠٦ .
(٣) المرجع السابق ص : ١٠٧ .
(٤) سورة الأنعام آية : ١٢١.
(٥) أثر النحاة ص : ١٠٧ .

وفى معانى القرآن للفراء (ت٢٠٧هـ) نجد شواهد تؤكد أنه قد تناول الفصل والوصل فى أكثر من موضع وإن لم ينص عليه كمصطلح، بل إن بعض الشواهد القرآنية التى مثل بها قد تناولها البلاغيون فى كتبهم فيما بعد وذكروها أمثلة على مواضع مختلفة من الفصل والوصل ، فمن ذلك تفريقه بين آيتى البقرة وإبراهيم اللتين تشابهتا فى النظم وقد جاءت إحداهما موصولة بالواو والأخرى مفصولة فى ذات الموضع ، وهما قوله تعالى: ژ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ژ [١] وقوله تعالى : "وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم"[٢] فكلمة يذبحون جاءت فى الآية الأولى متصلة بما قبلها بالواو، وفى الثانية منفصلة عما قبلها بدون واو يقول : " فمعنى الواو أنه يسمهم العذاب غير التذبيح ، كأنه قال يعذبونكم بغير الذبح وبالذبح ، ومعنى طرح الواو: كأنه تفسير لصفات العذاب ، وإذا كان الخبر من العذاب أو الثواب مجملا فى كلمة ثم فسرته فاجعله بغير الواو ، وإذا كان أوله غير آخره فبالواو "[٣] فالمعنى الذى ذكره حين طرح الواو هو عند البلاغيين أحد مواضع الفصل وهو كمال الاتصال بين الجملتين ، حيث تكون الثانية بيانا وتفسيرا للأولى كما فى آية سورة البقرة ، بل إنه ليضع القاعدة ليقاس عليها بقوله : "إذا كان الخبر ... مجملا فى كلمة ثم فسرته فاجعله بغير الواو ، وإذا كان أوله غير آخره فبالواو " و هو يشير بجملته الأخيرة إلى أن الوصل يكون حيث أريد بالكلام الثانى غير الأول " فتذكر الواو باعتبار أن الذبح

(١) سورة إبراهيم آية : ٦.
(٢) سورة البقرة آية : ٤٩ .
(٣) معانى القرآن للفراء جـ ١ ص : ٤٤.

غير سوم العذاب"[١] كما فى آية سورة إبراهيم وهو معروف من أن العطف يقتضى المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه .

وهو يدلل على فكرته فى الفصل حين تكون الجملة الثانية بيانا وتفسيرا للأولى ، فيذكر مثالا آخر ، و هو قوله تعالى : " ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة"[٢] يقول : " فالآثام فيه نية العذاب قليلة وكثيرة ، ثم فسره بغير الواو فقال : " يضاعف له العذاب يوم القيامة " ولو كان غير مجمل لم يكن ما ليس به تفسيرا له ، ألا ترى أنك تقول : عندى دابتان : بغل و برزون ، ولا يجوز عندى دابتان و بغل و برزون ، وأننا نريد تفسير الدابتين بالبغل و البرزون ففى هذا كفاية عما نترك من ذلك فقس عليه"[٣].

وهو بهذا يعد أول من أشار إلى موضع الفصل هذا وفسره وشرحه وأوصى به أساسا يقاس عليه ، كما وضح الفرق بين الأسلوبين : الفصل والوصل فى الآيات السابقة " فى حديث واضح لا لبس فيه و لا خفاء"[٤].

وقد تحدث الفراء كذلك عن فكرة تقدير السؤال و الإجابة عليه ونص على أنه موضع فصل ، وذلك فى قوله تعالى : " قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين"[٥] قال " وهذا فى القرآن كثير بغير الفاء ، وذلك لأنه حواب يستغنى أوله عن آخره بالوقفة عليه ، فيقال : ماذا

(١) أثر النحاة فى البحث البلاغى ص : ١٥٧ .
(٢) سورة الفرقان آية : ٦٨ ، ٦٩ .
(٣) معانى القرآن للفراء جـ ٢ ص : ٦٩.
(٤) أثر النحاة فى البحث البلاغى ص : ١٥٧ .
(٥) سورة البقرة آية : ٦٧ .

قال لك ؟ فيقول القائل : قال كذا وكذا ؛ فإن حسن السكوت يجوز به طرح الفاء ، وأنت تراه فى رؤوس الآيات – لأنها فصول – حسنا"[١].

ثم تراه يقارن بين حال الوصل وحال الفصل فيما يتوافق مع تقدير السؤال وعدم تقديره ، وكان أكثر مما مثل به من الآيات هو موطن القول ، يقول : "من ذلك : قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا إنا أرسلنا"[٢] والفاء حسنة مثل قوله : " فقال الملأ الذين كفروا"[٣] ولو كان على كلمة واحدة لم تسقط العرب منه الفاء ، من ذلك : قمت ففعلت ، لا يقولون : قمت فعلت ، ولا قلت قال ، حتى يقولوا قلت فقال وقمت فقام ، لأنها نسق وليست باستفهام يوقف عليه ألا ترى أنه : " قال " فرعون " لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين"[٤] فيما لا أحصيه . ومثله من غير الفعل كثير فى كتاب الله بالواو وبغير الواو ؛ فأما الذى بالواو فقوله : " قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم"[٥] ثم قال بعد ذلك " الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار " وقال فى موضع آخر " التائبون العابدون الحامدون"[٦] وقال فى غير هذا " إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات " ثم قال فى الآية بعدها : " إن الذين آمنوا ولم يقل : وإن"[٧] ويقرر القاعدة التى ينبغى القياس عليها فيقول

(١) معانى القرآن للفراء جـ ١ ص : ٤٤ .
(٢) سورة الذاريات آية : ٣١ ، ٣٢ .
(٣) سورة هود : آية : ٢٧ .
(٤) سورة الشعراء آية : ٢٥.
(٥) سورة آل عمران آية : ١٥ ،١٧ .
(٦) سورة التوبة آية : ١١٢ .
(٧) معانى القرآن للفراء جـ ١ص : ٤٤ .

: " فاعرف بما جرى تفسير ما بقى ، فإنه لا يأتى إلا على الذى أنبأتك به من الفصول أو الكلام المكتفى يأتى له جواب"(١) .

وهو فى توضيحه السابق لموطن الفصل الذى سمى فيما بعد بشبه كمال الاتصال " كان أكثر وضوحا وأقرب إلى الروح العلمية منه إلى سيبويه"(٢) .

ومن خلال ما سبق بيانه عند كل من سيبويه والفراء نجد أنهما كان لهما قصب السبق فى الحديث عن مواطن الفصل والوصل قبل إشارة الجاحظ ومن يحكم بغير هذا يكون فى حكمه

" إجحاف بحقهما لأنهما أتيا بالصور المنطوية تحت ما يعرف بالفصل والوصل"(٣) .

(١) المرجع السابق جـ ١ ص : ٤٤ .
(٢) أثر النحاة ص : ١٥٨ .
(٣) المعانى فى ضوء أساليب القرآن : ٣١٠ .

شأن عطف المفردات

لم يهمل عبد القاهر عطف المفردات و لم يقلل من قيمتها البلاغية و لكنه رأى أن الأمر فيها يسهل إدراكه ؛ لأن تركيبها بسيط ليس له متعلقات و قيود أو مرجوعات ضمائر تشكل من أمره كما هو الحال فى الجمل .

وقوله: "ومعلوم أن فائدة العطف فى المفرد أن يشرك الثانى فى إعراب الأول، وأنه إذا أشركه فى إعرابه فقد أشركه فى حكم ذلك الإعراب ..." [1] ليس معناه أنه ليس لهذا النوع من العطف فائدة إلا التشريك فى الإعراب فقط ، بل إن معناه أن فائدة العطف ظاهرة بينة حينئذ يسهل على الباحث أن يحصل عليها من دون عناء ؛ لأن هذه المعرفة كانت بعد معرفة الشركة فى الإعراب ، فهى التى هيأت لوجود شركة أخرى ترتبت عليها ، و هى الشركة فى الحكم التابع لهذا الإعراب ، ولا يعقل عندئذ انعدام الشركة فى المعنى كذلك ، ومن ثم وجود فائدة منبنية على هذا الاشتراك المعنوى ، فالشراكة فى الإعراب إذن هى التى تفتح الباب لمعرفة سر الجمع بين المتعاطفين والمدخل لتحصيل الفائدة من ورائه .

ولذا يقاس على ذلك عطف الجمل التى لها محل من الإعراب إذ " لايكون للجملة موضع من الإعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد ، وإذا كانت الجملة الأولى واقعة موقع المفرد ، كان عطف الثانية عليها جاريا مجرى عطف المفرد على المفرد"[2] ولو كان عبد القاهر لا يهتم بشأن عطف المفردات أو ينكر قيمتها البلاغية و يخرجها من دائرة

(١) الدلائل ص : ٢٢٢.
(٢) الدلائل ص : ٢٢٣.

البحث البلاغى لما ذكرها من الأصل ولما قاس عليها عطف الجمل ، ولوجدنا فى كلامه ما يقلل من شأنها ولكن هذا لم يحدث .

إذن يرجع عدم تعرض البلاغيين للوصل والفصل فى المفردات كتعرضهم له فى الجمل إلى الإشكال وصعوبة الادراك الذى يقع فيها من دون المفردات ، لذا نجد السكاكى (ت ٦٢٦ هـ) يرى " أن تمييز موضع العطف من غير موضعه فى الجمل ... هو الأصل فى هذا الفن"[١] فهو لم يقصر هذا الباب على الجمل وحدها ولكنه جعله الأصل مما لا يمنع دخول دراسة المفردات فيه كذلك ، وهذا خلاف ما فهمه الخطيب القزوينى (ت ٧٣٩ هـ) فيه حيث ظن أن غير الجمل متروك ، فقصر العطف وتركه على الجمل فى تعريفه للفصل والوصل ، وسار شراح تلخيصه على نفس الدرب ووافقه كثير من البلاغيين فى تعاريفهم كالطيبى ، والتفتازانى وغيرهما .

ولكن هناك من تنبه إلى صحة الأمر . وهو لاشك كغيره مستفيد من إشارة عبد القاهر . كالعلوى فى طرازه حيث يقول : " أعلم أن العطف على نوعين ، عطف مفرد على مفرد وعطف جملة على جملة فأما عطف المفرد على المفرد فيستفاد منه مشاركة الثانى للأول فى الإعراب فى رفعه ونصبه وجره ... "[٢] .

كما أن هناك من تعرض لبحث الفصل والوصل فى المفردات وأفرد له فصلا خاصا ، وهو بهاء الدين السبكى (ت ٧٧٣ هـ) [٣] بل إنه أجرى تقسيمه على وفق ما هو معروف فى تقسيم الجمل من كمال

---

(١) مفتاح العلوم ص : ١٠٩ .
(٢) الطراز جـ ٢ص : ٢٠ .
(٣) ينظر لبيان ذلك عروس الأفراح للسبكى ضمن شروح التلخيص جـ٣ ص : ١١٣ .

الاتصال ، وكمال الانقطاع ، وشبههما ، والتوسط بينهما ، وضرب الأمثلة على ذلك كله فى عطف المفردات .

وبعد هذا نرى من العجب أن يقال : "إن شارحا من شراح القزوينى [يقصد السبكى] يرد شاهدا أورده البلاغيون فى باب الوصل على أنه من عطف المفردات التى لا شأن للبلاغيين به ... فيقول السبكى معقبا وهذا ليس مثال لما نحن فيه فإنه من عطف المفردات "(١) على أنه من الواضح أن السبكى يذكر ذلك فى معرض الحديث والتمثيل لعطف الجمل فأراد تخصيص الحديث عنه لحين الذهاب للحديث عن عطف المفردات .

وكيف يرد السبكى الشاهد لإخراجه من دائرة الشأن البلاغى ، لأنه من عطف المفردات وهو الذى تميز عن شراح التلخيص بأنه أفرد له مبحثا خاصا، وأجراه وفق مواطن الفصل والوصل فى الجمل.

وقد تنبه المتأخرون من شراح التلخيص إلى عدم إغفال هذا المبحث كالعصام الإسفراييني (ت٩٥١ هـ) حيث أشار إلى أن الفصل والوصل ليس مقصورا على الجمل ، بل المقتضيات لها جارية فى المفردات أيضا ... لئلا يكون بمعزل عن البلاغة ، وكيف يظن أن عطف الجمل التى هى أخبار المبتدأ ، أو أحوال الصاحب أو صفات المنعوت ، وتركه مبنيات على أحوال من دون ما فى المفردات"(٢)

وكلام العصام هذا ، ليس ردا على عبدالقاهر ، ولكنه بيان وتوضيح له ، ورد على من ذكر خلافه .

---

(١) بلاغة العطف فى القرآن دراسة أسلوبية د/ عفت الشرقاوى ص: ١١٥ .

(٢) الشرح الأطول للعصام جـ٢ ص : ٢ .

عطف الصفات على بعضها

ومن أبرز ما نوقش فى هذا الباب وتناقلته الكتب المختلفة الحديث عن عطف الصفات على بعضها وتركه خاصة ما ورد فى شأنه سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم، يقول العلوى (ت٧٣٩ هـ) : " فأما الصفات فالأكثر أنه لا يعطف بعضها على بعض ... ؛ لأن الصفة جارية مجرى الموصوف ؛ لاستحالة عطف الشىء على نفسه ، ويجوز عطف بعضها على بعض باعتبار المعانى الدالة عليها ... فأما الصفات الجارية على الله تعالى ، فقلما يأتى فيها العطف ، وما ذاك إلا لأنها أسماء دالة على الذات باعتبار هذه الخصائص لها ووافقت الذات فى عدم الأولوية لها ؛ فلأجل هذا جرت مجرى الأسماء المترادفة"(١) .

وأورد العلوى أن الصفات إذا تعددت فى الكلام فإنها إذا كانت متضادة يعطف بعضها على بعض ، وإذا كانت غير متضادة ترك العطف بينهما ، وربط العطف فى هذه الحالة بالواو خاصة وضرب أمثلة لذلك بقوله تعالى : " هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم "(٢) فقد عطف الآخر على الأول ، والباطن على الظاهر ؛ لأن هذه الصفات متضادة ، فالآخر ضد الأول ، والباطن ضد الظاهر ولذلك عطف كل منهما على الآخر بالواو للضدية بينهما ، و استشهد على أن الصفات غير المتضادة تذكر بلا عطف بقوله تعالى:

" هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السماوات والأرض وهو العزيز

(١) الطراز للعلوى جـ٢ ص :٢١.
(٢) سورة الحديد آية : ٣ .

الحكيم "[١] فهذه الصفات التى وردت فى الآية لم يعطف بعضها على بعض ؛ لأنها صفات غير متضادة .

وأكد ثبوت تلك القاعدة بورود آيات أخر على هذه الجهة ووجود الأمرين معاً العطف وغير العطف فى آية واحدة كما فى قوله تعالى : " عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا "[٢] فالصفات الأول هى ... صفات غير متضادة ؛ لذلك ترك العطف بينها ، أما الصفتان الأخيرتان " ثيبات وأبكارا " فقد ورد العطف بينهما ؛ " لأجل تناقض البكارة والثيوبة فجىء بالعطف لدفع التناقض بخلاف الإسلام والإيمان ... "[٣]

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : " التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين "[٤] فقد توالت الصفات الأولى من دون عطف لعدم التضاد بينها ، أما الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر لما كانت هاتان الصفتان متضادتين ، فلا جرم وجب فيهما العطف كما ترى"[٥]

أما فى مثل قوله تعالى : " تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب . شديد العقاب ذى الطول"[٦] فقد حاول العلوى إثبات وجه من التضاد بين غافر الذنب وقابل التوب حيث عطف بين الصفتين على

(١) سورة الحشر آية : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) سورة التحريم آية : ٥ .
(٣) الطراز جـ٢ ص : ٢١ .
(٤) سورة التوبة آية : ١١٢ .
(٥) الطراز جـ ٢ ص : ٢١ .
(٦) سورة غافر آية : ١ ، ٢ .

الرغم عدم التضاد الظاهر بينهما فقال : " وأما مجىء قوله " قابل التوب" بالواو مع كونها من صفات الأفعال ... فلأن المرجع بالمغفرة إلى السلب ؛ لأن معنى " الغافر " هو الذى لا يفعل العقوبة مع الاستحقاق والمرجع بقبول التوبة إلى الإثبات ؛ لأن معناه أنه يقبل العذر والندم ، فلما كانا متناقضين بما ذكرناه ، وجب ورود الواو فصلا بينهما كما ذكرناه فى الأول والآخر ... ومن وجه آخر وهو أنهما وإن كانا من صفات الأفعال خلا أن المغفرة مختصة بالعبد ، وقبول التوبة مختص بالله تعالى ، فلما تغاير أمر هذا الوجه لا جرم وردت الواو منبهة على تغايرهما"[١] ويقصد بقوله : " فلما تغاير أمر هذا الوجه لاجرم وردت الواو ..." أن بين ما اختص به الله وما اختص به العبد الرفعة والدنو فبينهما تغاير بالتضاد ، ولا يخفى ما فى هذا التأويل من التكلف ولكن ببعض من إمعان النظر والبحث والاستقراء نجد بناء العطف بين الصفات وتركه على قاعدة وجود التضاد وعدمه أمر غير مسلم به ، وفى آيات أخر من القرآن الكريم ما ينقضه ففى قوله تعالى : " إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة"[٢] تجد أن "خافضة " ، " رافعة " صفتان ليوم القيامة وقد توالتا من دون عطف بينهما على الرغم من أنهما متضادتان .

وجاء فى الشعر العربى الذى يستشهد به قول امرىء القيس فى وصف فرسه وسرعته :

مكر مفر مقبل مدبر معا ∴ كجلمود صخر حطه السيل من عل[٣]

---

(١) الطراز جـ٢ ص : ٢١ ، ٢٢ .
(٢) سورة الواقعة آية : ١ ، ٢ ،٣ .
(٣) المعنى أن هذا الفرس شديد السرعة على غير المعتاد فى الخيول، فهو عندما تراه مهاجما ، فى اللحظة نفسها تجده فارا عن طعنة ؛ ولذلك قال : مكر مفر ، والكر: هو الهجوم ، و مفر معناه : يفر عن

فمكر ضد مفر ، ومقبل ضد مدبر ، ومع ذلك لم تعطف هذه الصفات المتضادة و لم تكن خصيصة اختصت بها الواو ؛ نظرا لإفادتها التغاير ، فالعطف عامة هو الذى يفيد التغاير سواء كان بالواو أو بغيرها ، كما أن التغاير لا يكون بالتضاد فقط ، فالتغاير بين المعطوفين يعنى اختلافهما سواء كان بالتضاد أو غيره .

كما نجد صفات غير متضادة ومع ذلك جاءت بينها الواو كما مر فى آية سورة غافر السابقة ، وكذلك قوله تعالى : " الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار"(١) فهذه الصفات لا تضاد بينها ، ومع هذا عطفت .

كذلك الصفات الواردة فى قوله تعالى : " إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد لهم مغفرة وأجرا عظيما"(٢) عطفت بالواو على الرغم من انتفاء الضدية بينها .

إذن القول بوجوب وجود الواو بين الصفات المتضادة ، وترك الواو بين الصفات غير المتضادة قاعدة لم تثبت ؛ لنقضها بالشواهد

الطعان ، تراه مقبلا للأمام حال الكر ومدبرا للخلف حال الفر=
=فترى صدره ودبره فى آن واحد ، ثم شبهه فى ذلك بجلمود صخر يعنى : الصخرة التى تنزل من أعلى الجبل بسبب أن السيول الشديدة تدفعها، فأنت ترى جانبا من جوانب الصخرة ، ثم لسرعتها ترى الجانب الآخر فكأنك رأيت وجهها ومؤخرها فى لحظة واحدة.

(١) سورة آل عمران آية : ١٦ ، ١٧ .

(٢) سورة الأحزاب آية : ٣٥.

المخالفة ، والأولى فى الدراسة البلاغية أن نبحث عن الأسرار الكامنة وراء الواو إن وجدت ، وأن نكشف ونجلى سر تركها حين تترك .

فالعطف يقتضى التغاير بين المعطوف والمعطوف عليه ، وعندما تأتى الواو بين الصفات ؛ فإنها تفيد كمال اتصال الموصوف بكل صفة منها على حدة ، ففى الآيات السابقة فى قوله تعالى : " الصابرين والصادقين والقانتين ... " وكذلك قوله سبحانه : "المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ..." نجد أن الواو تفيد أن الموصوف بصفة منها قد بلغ الكمال فى كل صفة على انفراد ، فهم بلغوا الكمال فى الصبر، و الكمال فى الصدق ، والكمال فى القنوت ... وهكذا بقية الصفات .

وعندما تأتى الصفات متوالية من دون عطف ، فإن ذلك يفيد كمال احتماع كل هذه الصفات فى موصوف واحد ، فالصفات السابقة فى سورة التوبة " التائبون العابدون الحامدون السائحون ..." وكذلك فى سورة التحريم " مسلمات مؤمنات قانتات ..." ترك العطف بينها أفاد أن هذه الصفات مجتمعة فى الموصوفين جملة كأنها صفة واحدة ، وفرق واضح بين أن تكون الصفات مجتمعة فى حكم الصفة الواحدة وبين أن تكون كل صفة منها قد بلغت الكمال على انفرادها ، وعلى هذا جاء قول امرىء القيس السابق حيث أراد أن هذه الأوصاف امتزجت فصارت كأنها صفة واحدة تحدث مرة واحدة ، وهذا ما يسر له أن يقول : " معا ".

كذلك القول فى خافضة رافعة ، أى أن الزلزلة الشديدة أو الهول الشديد يوم القيامة يحدث فيه الخفض والرفع فى زمن واحد ، وكأنها صفة واحدة ويقع من الواقعة الفعلان معا وفى اللحظة نفسها ، ولو قيل فى غير القرآن : خافضة ورافعة لم يفد هذا المعنى ؛ لأن الخفض قد يكون فى زمن ، والرفع فى زمن آخر .

ولعل السبكى كان صائبا حين لم يقصر العطف بين الصفات وعدمه على وجوب وجود التضاد أو عدم وجوده حيث يقول : " وإنما استحسن العطف عند إيهام التضاد كما فى المثال الثانى ليفهم الجمع ونفى التناقض وهذا فى المفردات وأما فى الجمل فمتى قصد التشريك وجب العطف والفرق بينهما كون الصفات المفردة كالشىء الواحد فى الموصوف لعدم استقلالها بخلاف الجمل "[1] ويقصد بالمثال الثانى سورة الحديد : " هو الأول والآخر ..." فلم يشترط التضاد حين العطف ، وإنما رآه مستحسنا كوروده فى بعض الآيات .

وإذا كان هناك تناقضا بين " الآمرون بالمعرف " و" الناهون عن المنكر " فأين هذا التنافض بين " الناهون عن المنكر " و" والحافظون لحدود الله " بعدها فى ذات الآية ؟ لذا نجد من لم تسيطر عليه فكرة التضاد فى مثل هذا الموضع فنظر نظرة أخرى فقال:"فالعطف لبيان استقلالهم بالصفة و لو فصل لتوهم اختصاص الحفظ للحدود بالنهى عن المنكر وهو غير مراد "[2] .

وأين هذا التناقض فى قوله تعالى : " إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا "[3] وأين خصوصية الواو فى حال التضاد ؟ بل إن هناك من الأوصاف ما تأتى الواو بينها وهى صفات قد وسمت بالترادف كما فى قوله تعالى : " إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله "[4] ، " ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما "[5] بل إنه مخالف لما اختصت

(١) شروح التلخيص جـ ٤ ص : ٧.
(٢) تفسير أبى السعود جـ ١٦ ص :٢٠٥ ،وأسرار الفصل والوصل فى البلاغة القرآنية د / صباح عبيد دراز ص : ٤٠.
(٣) سورة الأحزاب آية : ٤٥ ، ٤٦ .
(٤) سورة يوسف آية : ٨٦ .
(٥) سورة طه : ١١٢ .

به الواو من سائر حروف العطف وهو أنه يعطف بها الشيء على مرادفه[١]نحو قوله تعالى :" أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة"[٢] و"لا ترى فيها عوجا ولا أمتا"[٣] وقوله عليه الصلاة والسلام : "ليلينى منكم ذوو الأحلام والنهى "[٤].

ولعل العلوى اطمأن بقوله بوجوب وجود التضاد اعتمادا على كلام الزمخشرى "فإن قلت لم أخليت الصفات كلها عن العاطف ووسط بين الثيبات والأبكار؟ قلت لأنهما صفتان متنافيتان لايجتمعن فيها اجتماعهن فى سائر الصفات، فلم يكن بد من الواو"[٥] وقال العلوى: "لما كانت هاتان الصفتان متضادتين ، فلا جرم وجب فيهما العطف كما ترى"[٦] .

ولكن " عبارة الزمخشرى وصف للمغايرة الواضحة بين الثيبات والأبكار وأنهما لا يجتمعان"[٧] ؛ لأن قول الزمخشرى " فلم يكن بد من الواو " يفيد أن أن الواو كحرف عطف كان لابد منها هنا لهذا التغاير خاصة وكذلك كل موضع مثله ، من دون الإشارة إلى تعميمه فى كل موضع تأتى فيه الواو بين صفتين أن تكون على هذا الحد ، بخلاف قول العلوى : " لاجرم وجب فيها الواو " حيث يوحى بحتمية تفسير التناقض والقياس عليه فى كل موطن وردت فيه الواو بين صفتين على الإطلاق ، والدليل على ذلك أنه جد فى التماس وجه من التضاد بين غافر الذنب وقابل التوب، فتعسف فى ذلك وبعد عن التقدير المقبول.

---

(١) مغنى اللبيب جـ ٤ ص :٣١٥.
(٢) سورة البقرة آية : ١٥٧ .
(٣) سورة طه : ١٠٧ .
(٤) صحيح مسلم جـ ٤ ص: ١٥٤ . باب الصلاة .
(٥) الكشاف جـ٤ ص: ٤٥٤ ، ٤٥٥، والبلاغة القرآنية ص: ٦٠ .
(٦) الطراز جـ ٢ ص : ٢١ .
(٧) دلالات التراكيب دراسة بلاغية د/ محمد أبوموسى ص : ٢٨٢ .

والأولى فى توضيح عطف الثيبات على الأبكار أنه جاء فيها العطف من دون الصفات السابقة عليها ليس للتناقض على إطلاقه ولكن لإفادة التغاير بينهما تغايرا تاما بحيث يستحيل اجتماعهما فى ذات واحدة بخلاف الصفات السابقة عليها التى يجوز أن تجتمع فى ذات واحدة لانتفاء استحالة هذا فيها ، والمعنى أن أولئك الأزواج الأخيار التى يمكن أن يبدلها الله لرسوله علاوة على كونها مسلمات مؤمنات قانتات ... أن منها الثيبات ومنها الأبكار ، فهى لا تكون ثيبات وأبكارا فى آن واحد ولكن منها هذه ومنها تلك ، لحصول اجتماع أفضل الخير ولتحقق أفضلية البدل بظفره بالصنفين ، وبهذا المعنى تكون متممة للأوصاف السابقة كأنهما صفة واحدة عددت مع سابقاتها من دون عطف كذلك .

وتفسير العلوى لسبب العطف فى قوله تعالى:"هو الأول والآخر والظاهر والباطن"[١] لأنها متضادة المعانى فى أصل موضوعها؛ فلهذا جاءت الواو رافعة لتوهم من يستبعد ذلك فى ذات واحدة؛ لأن الشىء الواحد لا يكون ظاهرا باطنا من وجه واحد، فلأجل هذا حسن العطف"[٢] – تفسير صحيح و يمكن القياس عليه فى كل موطن يماثله و لكن لا يمكن اتخاذه قاعدة واجبة لكل عطف يقع بين صفتين ؛ لأنه منقوض بآيات أخر كما فى آية غافر ، و قد وضح الرازى فكرة التغاير بالتضاد فيها و لكنه لم يوجبها ، يقول :" لو لم يذكر الواو لاحتمل أن يقع فى خاطر إنسان أنه لا معنى لكونه غافر الذنب إلا كونه قابل التوب ، فلما ذكر الواو زال هذا الاحتمال ؛ لأن عطف الشىء على نفسه محال"[٣] .

.

(١) سورة الحديد آية ٣.
(٢) الطراز جـ ٢ص: ٢١ .
(٣) تفسير الرازى جـ ٢٧ ص : ٢٩ .

عطف الصفة على الموصوف

وقد رأى العلوى أن الصفة يمتنع عطفها على موصوفها فلا يجوز أن تقول : جاءنى زيد والكريم على أن الكريم هو زيد ، لاستحالة عطف الشيء على نفسه ، لأن الصفة جارية مجرى الموصوف"(١) ولكن وصف ورود هذا النوع من الوصل بالقلة أولى من وصفه بالامتناع لرده بالشاهد المخالف من ذلك قوله تعالى : " وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون"(٢) فالكتاب هو الموصوف بكونه الفرقان ، والمقصود به الكتاب الذى أنزل على موسى وهو التوراة ، وقد عطفت الصفة على الموصوف للجمع بين كونه كتابا منزلا ، وفرقانا يفرق بين الحق والباطل ، " ولكن معنى التغاير الذى لايبرح الواو أوهم أنه شيء آخر وذلك ليبرز صفة كونه فرقانا ، وكأنه بها يستقل عن سابقه"(٣) ويستوى فى ذلك ما وقعت فيه الصفة جملة كما فى قوله تعالى :

" سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى أعلم بعدتهم"(٤) فقد عطفت جملة الصفة " وثامنهم كلبهم " على الموصوف سبعة لشدة لصوق الصفة بالموصوف مما يؤذن بثبات تلك الصفة وثبوتها فـ " الواو فى قوله وثامنهم هى الواو التى تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة ومنه قوله تعالى : " وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم"(٥) وفائدتها " توكيد ثبوت الصفة للموصوف والدلالة على أن اتصافه بها

---

(١) ينظر الطراز جـ٢ ص : ٢٠ .
(٢) سورة البقرة آية : ٥٣ .
(٣) دلالات التراكيب د / محمد أبو موسى ص : ٢٨٠ .
(٤) سورة الكهف آية : ٢٢ .
(٥) سورة الحجر آية : ٤ .

أمر ثابت مستقر ، وهذه الواو هى التى آذنت بأن الذين قالوا سبعة وثامنهم كلبهم قالوه عن ثبات وعلم وطمأنينة نفس ، ولم يرجموا بالظن كما غيرهم ، والدليل عليه أن الله سبحانه أتبع القولين الأولين قوله : " رجما بالغيب " وأتبع القول الثالث قوله : " ما يعلمهم إلا قليل " وقال ابن عباس ـ ﷺ ـ حين وقعت الواو انقطعت العدة أى: لم يبق بعدها عدة عاد يلتفت إليها[١] .

والمتأمل للمفردات المعطوفة وترتيبها فى الكلام يجد منه ما يدق ويخفى موضعه حتى يحتاج إلى توقف عنده والنظر فيه كى يظفر بالمعنى الملائم ، فانظر مثلا إلى قوله تعالى : " واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام"[٢] وقوله سبحانه : " وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه و بالوالدين إحسانا "[٣] تجدهما من واد واحد ، فعطف الوالدين على لفظ الجلالة وكذلك الأرحام وإن كان بينهما وما عطف عليه تباعد و تباين إلا أن " فى اقترانه به تشريف وتعظيم وحث على مزيد من البر و العطف"[٤] تجاههما ، وهكذا إذا نقبنا وراء كل مثال من وصل المفردات وجدنا من اللطائف والدقائق ما لا يمكن إغفاله .

وقد أولى البلاغيون اهتماما كبيرا بضرورة إبراز التناسب أو ما سموه الجامع بين طرفى الكلام المتعاطف سواء كان فى المفردات والجمل ، وجعلوه شرطا لكى يكون العطف مقبولا ويحل محله اللائق به من السياق وذكروا له أشكالا كثيرة تجمعها ثلاثة أنواع رئيسة هى الجامع العقلى والوهمى والخيالى ، وضربوا لهم أمثلة كثيرة منها ما

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص : ٧١٣ ، ٧١٤ .
(٢) سورة النساء آية : ١ .
(٣) سورة الإسراء آية : ٢٣ .
(٤) علم المعانى دراسة بلاغية لمسائل علم المعانى د / بسيونى عبد الفتاح فيود ص : ٣٥٢ .

أصاب الصحة فارتفع شأنه لأجل تحقق التناسب بين المعطوفات فيه كقول محمد بن وهب فى مدح المعتصم :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها ∴ شمس الضحى وأبو إسحق والقمر

فإن الشمس والقمر وأبو إسحق معطوفات متباعدة متباينة ، ولكن جمع الشاعر بينهم بتشبيه الممدوح بالشمس والقمر فى الإشراق والضوء فقرن بينهم فى التصور بما يشبه التماثل ، فأبرزهم فى معرض الأمثال " لكثرة تشبيه عموم العدل والإحسان بنور الشمس حتى صار بحيث يتوهم أن له إشراقا يهتدى به فى المحسوسات"(١) ومثله قول الشاعر :

إذا لم يكن للمرء فى الخلق فذو التاج والسقاء والذر واحد مطمع ∴

فالذى حسن الجمع بين الملك والسقاء وصغار النمل هو اشتراكها فى عدم توقع الأخذ منهم والاستغناء عنهم مع كونها متباعدة متباينة غاية التباين(٢).

ومن هذا المنطلق عابوا على أبى تمام قوله :

لا و الذى هو عالم أن النوى ∴ صبر وأن أبا الحسين كريم

" لأنه لا مناسبة بين كرم أبى الحسين ومرارة النوى ، ولا تعلق لأحدهما بالآخر ، وليس يقتضى الحديث بهذا الحديث بتلك "(٣) .

وقد حاول البعض الانتصار لأبى تمام وإخراجه من دائرة العيب بآراء بدت متكلفة بعيدة ، ولكن ربما بالنظر إلى الأبيات السابقة لهذا البيت نلتمس وجها آخر لعله يظهر شيئا من التناسب بين ما رأوا فيه

(١) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص جـ٣ ص : ٩٥ .
(٢) ينظر المرجع السابق جـ٣ ص : ٩٥ .
(٣) دلائل الإعجاز ص : ٢٢٥ .

عدم التناسب ، والقصيدة من روائع أبى تمام يمدح فيها أبا الحسين محمد بن الهيثم ، يقول :

أسقى طلولهم أجش هزيم ∴ وغدت عليهم نضرة وسرور
جادت معاهدهم بعهد ∴ ما عهدها عند الديار ذميم
سحابة
سفه الفراق عليك يوم ∴ و بما أراه وهو عنك حليم
تحملوا
ظلمتك ظالمة البرىء ∴ والظلم من ذى قدرة مذموم
ظلوم
زعمت هواك عفا الغداة كما ∴ عنها طلول باللوى ورسوم
عفا
لا و الذى هو عالم أن ∴ صبر وأن أبا الحسين كريم
النوى
ما زلت عن سنن الوداد ولا ∴ نفسى على إلف سواك تحوم
غدت

إذا تأملنا الأبيات نرى أن الشاعر أدار الكلام بصيغة المخاطب وهو و إن كان ظاهره أنه أجراه تجريدا من نفسه شخصا آخر يخاطبه ويحدثه إلا أن الحوار يبدى أنه يخاطب أبا الحسين منذ بداية الأبيات ، فالجود الذى جادت به معاهد الديار ، والفراق الذى سفه من الحبيبة ، والظلم الذى وقع ممن زعمت الهوى كأنه كله مسند لأبى الحسين ، فالجود أتى من قبله والفراق سفه عليه من ظالمته الحبيبة ، ومن ثم فالالتفات من الخطاب إلى الغيبة عن ذات المحدث عنه أمر طبعى ، وبالتالى تكون مرارة النوى(الفراق) وكرم أبى الحسين بينهما تناسب صحيح ولا عيب فى الجمع بينهما ؛ لأنهما سبق التمهيد عنهما ، فهما مشتبكا الأحوال منذ البداية .

وهذا الاجتهاد مستمد من كلام الإمام عبد القاهر نفسه حيث يقول : " يجب أن يكون المحدث عنه فى إحدى الجملتين بسبب من المحدث عنه فى الأخرى ... وجملة الأمر أنها لا تجىء حتى يكون

المعنى فى هذه الجملة لفقا لمعنى فى الأخرى ومضاما لـه ، مثل أن "زيدا "و"عمرا " إذا كانا أخوين أو نظيرين أو مشتبكى الأحوال على الجملة ، كانت الحال التى يكون عليها أحدهما ... مضمومة فى النفس إلى الحال التى عليها الآخر من غير شك ، وكذا السبيل أبدا"[١] .

على أن شرط وجود المناسبة أو التناسب بين المعطوفات سواء كانت مفردات أو جمل ليس ضروريا فقط فى مجال العطف بل هو دائما مطلوب سواء عطف الكلام أم لم يعطف .

(١) الدلائل ص : ٢٢٥ .

عطف المفردات على الجمل أو العكس

ومما هو واسطة بين عطف المفردات و عطف الجمل عطف الاسم على الفعل و العكس ، و هو من جهة النحاة منهم من أجازه ومنهم منعه ، والأكثرية على الجواز وهو الأولى الأخذ به لوروده فى القرآن الكريم ، فمن عطف الفعل على الاسم قوله تعالى : " أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن "[١] ، ومنه قوله تعالى أيضا : " فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا "[٢] ومن عطف الاسم على الفعل قوله تعالى : " إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون "[٣] وقدره الزمخشرى عطف " مخرج " على " فالق"، وقال الطيبى: "لا يعطف اسم الفاعل على الفعل لإرادة استمرار التجدد فى الأولى والثبات فى الثانية ؛ لورود الفعلية بيانا ولا يصلح هذا أن يكون بيانا"[٤]، ولكنه مردود بقول الشاعر[٥] :

يا رب بيضاء من العواهج ∴ أم صبى قد حبا أو دارج

فاسم الفاعل " دارج " معطوف على " حبا " وهو فعل ، لأن دارج بمعنى درج .

وترى مثل هذا التقسيم ليس له أهمية كبرى لسببين أحدهما : لأنه تقسيم نحوى محض، والثانى: لأن هذا النوع أقرب لعطف الجمل فدراستها شاملة له .

---

(١) سورة الملك آية : ١٩ .
(٢) سورة العاديات : ٣ ، ٤ .
(٣) سورة الأنعام آية : ٩٥ .
(٤) التبيان فى البيان ص : ١١٣.
(٥) أوضح المسالك على ألفية ابن مالك جـ ٣ ص : ٦٢ .

هل تعد حروف العطف بإزاء الواو فى الوصل أم لا ؟

أحرف العطف هى : الواو، الفاء ، ثم ، أو ، أم ، حتى ، بل ، لا ، لكن ، وإذا بدأنا بما انتهينا به منها كـ بل و لا و لكن ، وجدنا إنها تفيد بجانب العطف أمرا آخر منها ملازما له دائما وهو الإضراب فى بل ، والنفى فى لا و الاستدراك فى لكن ، وهى معان مستقر ومتفق عليها لا خلاف فيها بين النحاة والبلاغيين ، كما أنه من المقرر والمتفق عليه كذلك أنها تفيد القصر عند تحقق شرطه ، و القصر أحد الأساليب البلاغية المفعمة باللطائف والنكات ، فهو بابها الأولى بدراسته لها فى مجال البلاغة ، وإذا عرف هذا فى تلك الأحرف بان معرفة أمر العطف بها لاستمداده الغرض من مصاحبة المعنى الآخر الملازم لها .

فـ"بل" تفيد دائما الإضراب حتى مع العطف ، ولا تكون للعطف إلا بشروط كما هو مقرر فى مغنى اللبيب أن لها استعمالين رئيسين أحدهما : أنها حرف عطف وإضراب ، وذلك إذا تلاها مفرد نحو " جاء زيد بل عمرو " أو تقدمها فعل أمر نحو : " أكرم زيدا بل عمرا " وفى كلا الحالين لا يكون العطف على النحو المعروف عنه من الشراكة المعنوية بين المعطوفين ، فكما نرى فى المثالين السابقين لا يحكم على زيد بشىء ، ويكون الحكم فى حقيقته لما بعدها " عمرو ". وكذلك إذا تقدمها نهى أو نفى نحو: " لا تضرب زيدا بل عمرو " فإنها تجعل ما قبلها كالمسكوت عنه فلا يحكم عليه بشىء ، ويثبت الحكم وحصر الضرب لما بعدها " عمرو " . إذن هى الأخرى ليس العطف معنى أصيلا فيها وليس له ميزة خاصة تميزه عن أصل معناها الذى تفيده وهو الإضراب .

و"لا" أصل معناها النفى ولا تكون عاطفة إلا بشروط ، ومن هذه الشروط ألا تقترن بعاطف آخر وإلا احتسب العطف لـه مما يضعف أصالة إفادتها العطف .

و"لكن" " هى حرف استدراك لا عمل لـه إذا وقعت بين الجملتين، نحو ما جاء زيد لكن جاء عمرو ، وحرف عطف واستدراك إذا وقعت بين مفردين وكانت مسبوقة بنفى أو نهى نحو: " ما جاء زيد لكن عمرو " ، فإن ذكرت الواو معها نحو : " ما جاء زيد ولكن عمرو " كان العطف للواو ، ولكن حرف استدراك لا عمل له "[١] .

إذن هو حرف لا يعطف جملتين ، وعمله للعطف مرهون بشروط ، كما أنه عند اقترانه بالواو يلغى العطف به ويحتسب للواو " ومما تقدم يتضح أن العربى لم يبدعها حرفا للعطف وإنما أسنده إليها إسنادا بما يشبه المصطلح لأن الأصل فى وظيفتها هو الاستدراك ، ويبدو أن هذا الحرف قد أبدع فى مرحلة لغوية متأخرة على أيدى الشعراء لضرورات الوزن و معانى الاستدراك ، فجاء العطف فرعا لا أصلا"[٢] .

و"أم" لاتعمل العطف إلا بشروط وهى أن تسبقها همزة التسوية أو همزة الاستفهام ، فالعطف فيها حينئذ ليس مجاله رحبا بل هو محدود بارتباطه بالحدث المسوى فيه أو المستفهم عنه .

و" حتى " أصل معناها الغاية ، والعطف أحد استعمالاتها ولكنها لا تعمله إلا بشروط فى معطوفها وهى أنه يشترط أن يكون مفردا لا جملة ، وأن يكون ظاهرا لا مضمرا و أن يكون بعضا مما قبله ، فنجد

---

(١) المحيط فى الأصوات العربية ونحوها وصرفها ، محمد الأنطاكى جـ ص : ٢١٤ .

(٢) حروف المعانى بين الأصاة والحداثة ، حسن عباس ص : ٢٠٠ .

أن العطف فيها مقيد لا يكون إلا فى حدود ضيقة فهو لا يشمل عطف الجمل ولا المضمر ولا يضمن التغاير التام بين المعطوفين حيث لا بد أن يكون المعطوف معها جزءا من المعطوف عليه ، إذن العطف فى حتى واضح أنه ليس أصيلا فيها كذلك .

و" أو " ذكر ابن هشام فى مغنى اللبيب أن لها اثنى عشر معنى منها أنها تفيد الجمع المطلق بين المتعاطفين كالواو ، وناقش الشمنى فى حاشيته على الدمامينى على مغنى اللبيب هذا الاستعمال لـ " أو " وخلص إلى ثبوته بشواهد كثيرة منها قول توبة صاحب ليلى الأخيلية :

وقد زعمت ليلى بأنى فاجر ∴ لنفسى تقاها أو عليها فجورها

أى لها تقواها وعليها فجورها ، وقول جرير :

جاء الخلافة أو كانت له قدرا ∴ كما أتى ربه موسى على قدر

أى وكانت مقدرة لا سعى له فيها . ومنه قوله تعالى : " ولا تطع منهم آثما أو كفورا "[1] فلا يطيعهما كما أنه لو قيل له بالواو كان كذلك ، وقول النابغة يخاطب النعمان بن المنذر :

واحكم كحكم فتاة الحى إذ نظرت ∴ إلى حمام شراع وارد الثمد

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا ∴ إلى حمامنا أو نصفه فقد

فحسبوه فألفوه كما ذكرت ∴ تسعا وتسعين لم ينقص ولم يزد

والشاهد فى قوله : " أو نصفه " وكون " أو " فى البيت بمعنى الواو ظاهر ، ويقويه أنه يروى ونصفه الواو[2].ومنه كذلك قوله تعالى

(١) سورة الإنسان آية : ٢٤ .
(٢) حاشية الشمنى جـ ١ ص : ١٣٧ .

: " ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم"(١) و أو فى الآية بمعنى الواو ، وقال ذلك جماعة منهم ابن مالك(٢).وكذلك الواو تأتى بمعنى أو فى كثير من معانيها التى تفيدها(٣).

وعول الشمنى على ما ذكره الزمخشرى من أن الواو تأتى للإباحة نحو : مثل " أو" وذلك عند الكلام على قوله تعالى : " فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة "(٤) فالواو هنا للإباحة نحو جالس الحسن وابن سيرين، وإنما جىء بالفذلكة(٥) يعنى تلك عشرة كاملة ؛ دفعا لتوهم إرداة الإباحة فى " فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم " حتى أنه لو صام الثلاثة فقط أو السبعة فقط أجزأه ، وذكر الشمنى أن كون الواو تأتى للإباحة قول معروف لبعض النحاة كالسيرافى فى شرح الكتاب(٦) .

فبم أن " أو" يمكن أن تأتى لمطلق الجمع بين المتعاطفين كالواو ، كما أن الواو تأتى ببعض معانيها ،إذن لا يمكن إغفالها كحرف عطف يدق موضعه ويغمض أحيانا كالواو التى قصر بعضهم الوصل عليها ، لدقة استعمالها وغموض مسلكها بسبب إفادتها الجمع المطلق .

بقى من أحرف العطف الواو والفاء وثم وهن أمهات هذا الباب ودعائمه ،ولنبدأ بـ :

---

(١) سورة النور آية : ٦١ .
(٢) حاشية الشمنى جـ : ١٣٥ ، ١٣٨ .
(٣) مغنى اللبيب جـ ٤ ص : ٣٦٩ .
(٤) سورة البقرة آية : ١٩٦.
(٥) الفذلكة فى الحساب أن يذكر تفاصيل ثم يجمل فيقال فذلك كذا .
(٦) حاشية الشمنى جـ ١ ص : ١٣٥ ـ ١٣٨ .

"ثم" ذكر ابن هشام أنها حرف عطف تقتضى ثلاثة أمور : التشريك فى الحكم والترتيب والمهلة ، وفى كل منهم خلاف[١] .

أورد الشمنى فى معنى " ثم " " وأما الترتيب فخالف قوم فى اقتضائها إياه تمسكا بقوله تعالى : "خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها "[٢] فإن خلق حواء لم يكن بعد خلق الذرية ، فثبت أن " ثم " استعملت بمعنى الواو مجازا للاتصال الذى بينهما فى معنى العطف ، فالواو لمطلق العطف وثم لعطف مقيد داخل فى المقيد فثبت بينهما اتصال معنوى ، فيجوز أن تستعمل بمعنى الواو ... وكذلك قوله تعالى : " وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه "[٣] والاستشهاد فى ثم الثانية لا الأولى ، فإن تسوية آدم لم تكن جعل نسله من ماء مهين ، وبقوله تعالى : " ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ، ثم آتينا موسى الكتاب "[٤] فالاستشهاد واضح ؛ لأن إيتاء موسى الكتاب كان سابقا على ذلك ،فلا تكون للترتيب ، وقول الشاعر :

إن من ساد ثم ساد أبوه ∴ ثم ساد قبل ذلك جده

ووجه الاستشهاد به واضح ، لأن سيادة الأب قبل سيادة الابن وسيادة الجد قبل سيادة الأب[٥] .

وقد رد ابن هشام بتقديرات وتأويلات كثيرة لهذه الشواهد كى لا تخرج " ثم "عن دائرة إفادتها الترتيب والمهلة ، ويرى أنها حين تستعمل من دون ترتيب كالواو ، فإن ذلك استعمال مجازى .

---

(١) مغنى اللبيب جـ ٢ ص : ٢١٩ .
(٢) سورة الزمر آية : ٦ .
(٣) سورة السجدة آية : ٧ ، ٨ ، ٩ .
(٤) سورة الأنعام : ١٥٣ ، ١٥٤ .
(٥) حاشية الشمنى جـ ١ ص : ٢٤٣ .

وأما المهلة فزعم الفراء أنها قد تتخلف فتكون " ثم " حينئذ مستعملة استعمال الفاء مجازا بدليل قولك : أعجبنى ما صنعت اليوم ثم ما صنعت أمس أعجب ، لأن ثم فى ذلك لترتيب الإخبار ولا تراخى بين الإخبارين، والظاهر أنها واقعة موقع الفاء فى قول الشاعر:

كهز الردينى تحت العجاج ∴ جرى فى الأنابيب ثم اضطرب

إذ الهز متى جرى فى أنابيب الرمح يعقبه الاضطراب ولم يتراخ عنه(١) .

كما تنبه الفخر الرازى فى تفسيره إلى معانى عدة لـ " ثم " منها :

أنها تأتى لاستبعاد حصول ما بعدها من ذلك استبعاد الإتيان بعمل قبيح بعد توالى النعم كما فى قوله تعالى : " وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون "(٢) **يقول : (إنما ذكر لفظة " ثم " لأنه تعالى لما وعد موسى حضور الميقات لإنزال التوراة عليه بحضرة السبعين ، وأظهر فى ذلك درجة موسى عليه السلام ، وفضيلة بنى إسرائيل ليكون ذلك تنبيها للحاضرين على علو درجتهم ، وتعريفا للغائبين ، وتكملة للدين ، كان ذلك من أعظم النعم فلما أتوا عقب ذلك بأقبح أنواع الجهل والكفر كان ذلك فى محل التعجب فهو كمن يقول : إننى أحسنت إليك وفعلت كذا وكذا ، ثم إنك تقصدنى بالسوء والإيذاء وهذا المعنى لـ" ثم " قد ذكره الزمخشرى قبله ، وقد يسمى الفخر هذا المعنى التعجب والإنكار من فعلهم ، يقول فى قوله تعالى : " ذرنى ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد "**(٣) **: (لفظ) " ثم " هاهنا معناه التعجب كما تقول لصاحبك : أنزلتك دارى وأطعمتك وأسقيتك ثم**

(١) المرجع السابق جـ ١ ص : ٢٤٥ ، ٢٤٦ .
(٢) سورة البقرة آية : ٥١ .
(٣) سورة المدثر آية : ١١ـ ١٥ .

أنت تشتمنى ، ونظيره " الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون "[١] فمعنى " ثم " ههنا الإنكار والتعجب[٢] .

ولو وقع العطف فى هذا ونحوه بالواو لم يلزم التوبيخ كلزومه بـ " ثم "[٣].

وتأتى لترتيب خبر على خبر من دون مراعاة الترتيب الزمنى من ذلك أنه يأتى الإخبار عن موسى بعد الإخبار عن المؤمنين عن أمة محمد . ﷺ . فى قوله تعالى : " وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلك وصاكم به لعلكم تتقون ، ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن وتفصيلا لكل شىء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون "[٤] فذكرت كلمة " ثم " لتأخير الخبر لا لتأخير الواقعة ، ونظيره قوله تعالى : " ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم "[٥] ومثله قوله تعالى : " خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها "[٦] فكما تجىء " ثم " لبيان كون إحدى الواقعتين متأخرة عن الثانية ، فكذلك تجىء لبيان تأخر أحد الكلامين عن الآخر، كقول الآخر : (بلغنى ما صنعت اليوم ثم ما صنعت أمس كان أعجب ، ويقول أيضا : قد أعطيتك اليوم شيئا ثم الذى أعطيتك أمس أكثر) . فالفخر يخالف الزمخشرى الذى يرى أن " ثم " هنا لبيان البعد بين الأمرين ، فما بعد ثم أعلى مرتبة مما قبلها يقول : "

---

(١) سورة الأنعام آية : ١ .
(٢) علم المعانى فى التفسير الكبير للرازى ، فائزة سالم جـ ١ ص: ٢٣٢ ، ٢٣٣ .
(٣) ينظرعلم المعانى فى التفسير الكبير للرازى جـ ١ ص : ٢٣٣ .
(٤) سورة الأنعام آية : ١٥٣ ، ١٥٤ .
(٥) سورة الأعراف آية : ١١.
(٦) سورة الزمر آية : ٦ .

فعطفها بـ " ثم " على الآية الأولى للدلالة على مباينتها لها فضلا ومزية وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية فهو من التراخى فى الحال والمنزلة لا من التراخى فى الوجود"[١] .

وهذا المعنى موجود قبل الزمخشرى والرازى عند الفراء ، بل لعل الرازى كان مطلعا عليه ، يقول الفراء فى توجيه " ثم اتخذوا العجل " فى قوله تعالى : " يسئلك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات"[٢] : " أن تجعل ثم خبرا مستأنفا، وقد تستأنف العرب بثم والفعل الذى بعدها قد مضى قبل الفعل الأول ، من ذلك أن تقول للرجل : قد أعطيتك ألفا ثم أعطيتك مثل ذلك مالا ؛ فتكون ثم عطفا على خبر المخبر كأنه قال : أخبرك أنى زرتك أمس، وأما قول الله عز وجل : " خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها "[٣] فإن الوجه لئلا يقول القائل : كيف قال : خلقكم ثم جعل منها زوجها والزوج مخلوق قبل الولد ؟ فهذا الوجه المفسر يدخل فيه هذا المعنى "[٤] .

وتأتى "ثم" لبيان عظمة ما هو واقع بعدها كما فى قوله تعالى : " فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم "[٥] فقد ذكر تعالى الطعام بتلك البشاعة والكراهة ، ثم وصف الشراب بما هو أبشع منه فكان المقصود من كلمة " ثم " بيان أن حال المشروب من البشاعة أعظم من حال

(١) علم المعانى فى التفسير الكبير جـ ١ ص : ٢٣٥ .
(٢) سورة النساء آية : ١٥٣ .
(٣) سورة الزمر آية : ٦ .
(٤) معانى القرآن للفراء جـ ١ ص : ٣٩٦ .
(٥) سورة الصافات آية : ٦٦ ، ٦٧ ،٦٨ .

المأكول[١] . وهذا المعنى لـ "ثم " قد ذكره الزمخشرى فى مواضع مختلفة من التفسير والفخر نقلها عنه[٢] .

ونرى معنى آخر جديدا تفيده " ثم" فى إعراب القرآن المنسوب للزجاج حيث عقد بابا لما جاء فى التنزيل معطوفا بالواو والفاء وثم من غير ترتيب الثانى على الأول ، جاء فيه : أن ثم قد تفيد الدوام والثبوت يقول :

" وأما قوله تعالى : " و إنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى "[٣] أى ثم دام وثبت على الاهتداء ، وهذا كقوله تعالى : " ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين " [٤]والمعنى فى ذلك : الدوام على الإيمان والعمل الصالح ... ومما يبين أن المعنى فيه ما ذكرت قوله تعالى : " إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة "[٥] وفى الأخرى " إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون "[٦] والمعنى : اتبعوا التوحيد ثم داوموا عليه وأقاموا ، فاستقام مثل أقام كاستجاب وأجاب "[٧] .

وترى لها معنى ثان جديد كذلك ، وهو معنى المفاجأة فى قوله تعالى : " وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما

---

(١) التفسير الكبير للرازى جـ ٦ ص : ١٤٣ .
(٢) علم المعانى فى التفسير الكبير جـ ١ ص : ٢٣٦ .
(٣) سورة طه آية : ٨٢ .
(٤) سورة المائدة آية : ٩٣ .
(٥) سورة فصلت آية : ٣٠ .
(٦) سورة الأحقاف آية : ١٣ .
(٧) إعراب القرآن المنسوب للزجاج جـ ١ ص : ١٠٢ ، ١٠٣ .

رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا "[١] فثم هنا أتت " بمعنى المفاجأة التى تعبر عن الفرج غير المتوقع بعد الشدة ، ونزول رحمة الله بهؤلاء الثلاثة بعد أن استيأسوا "[٢] .

ومهما جمعنا من آراء اجتهد فيها المفسرون والباحثون سواء فى ثم أو غيرها من حروف العطف التى هى موضوع الوصل والفصل لن نستطيع إحصاءها ولا حصرها خاصة فى القرآن الكريم ، فهو المعين الذى لا ينضب ، والذى يظل يفتح آفاقا من التعبير البليغ تختلف أسراره باختلاف المناسبة والسياق .

و"الفاء" جاء فى مغنى اللبيب أن الفاء العاطفة تفيد ثلاثة أمور :

الترتيب والتعقيب والسببية ، وأنها تارة بمعنى ثم لتراخى معطوفاتها وتارة بمعنى الواو[٣] .

أما بالنسبة لإفادتها للترتيب فقد أورد رأيا للفراء أن الفاؤ لا تفيد الترتيب ، والواو تفيده[٤] . وهو وإن كان رأيا غريبا ومخالفا لقول الجمهور فى الموضعين إلا أنه يحتج له بقوله تعالى : " وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون "[٥] فإن مجىء البأس لا يكون بعد الإهلاك ، وأجيب بأن المعنى أردنا إهلاكها ومجىء البأس واقع بعد الإرادة وهو ما ذهب إليه الزمخشرى ، وقال فى فجاءها بأسنا فجاء أهلها ، فإن القرية تهلك كما يهلك أهلها .

---

(١) سورة التوبة آية : ١١٨ .
(٢) بلاغة العطف فى القرآن الكريم ص : ٦٩ .
(٣) مغنى اللبيب جـ١ ص : ٤٨١ .
(٤) حاشية الشمنى جـ ١ ص : ٣١٦ .
(٥) سورة الأعراف آية : ٤ .

وقال الجرمى : لا تفيد الفاء الترتيب فى البقاع ولا فى الأمطار بدليل قول امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ∴ بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فالفاء هنا بمعنى الواو أى بين الدخول وحومل ، وقولهم مطرنا مكان كذا ، فمكان كذا ، وإن كان وقوع المطر منهما فى وقت واحد ، فتكون الفاء فى هذا أيضا كالواو.

وبالنسبة للتعقيب فى إفادة الفاء له ، فهناك من يرى خلافه ، كقوله تعالى : " ألم ترى أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة "[1] ومعلوم أن اخضرار الأرض لا يعقب نزول المطر بل يقع بعد مهلة وتراخ ، وقيل إن الفاء فى هذه الآية للسببية وفاء السببية لا تستلزم التعقيب .

وقيل تقع الفاء بمعنى ثم ومنه الآية السابقة أى ثم تصبح الأرض مخضرة ، وقوله تعالى : " ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما "[2] فالفاءات الثلاث فى الآية بمعنى ثم ؛ لتراخى معطوفاتها عن المعطوف عليه ، وقد ورد فى الحديث ما يقتضى التراخى[3] .

وقيل : إن الفاء تفيد الغاية بمنزلة إلى كما فى قوله تعالى : " إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها "[4] على أن الفاء فى الآية نائبة عن إلى ، أى ما بين بعوضة إلى ما فوقها .

---

(١)سورة الحج آية : ٦٣ .
(٢) سورة المؤمنون آية : ١٤ .
(٣) حاشية الشمنى جـ ١ ص : ٣١٨ .
(٤) سورة البقرة آية : ٢٦ .

كذلك ورد أن إذا الفجائية قد تنوب عن الفاء وقد قال صاحب الكشاف عند قوله تعالى : " فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا "[١] إن " إذا" فى الآية هى الفجائية ، وهى تقع فى المجازاة سادة مسد الفاء كقوله تعالى : " إذا هم يقنطون "[٢] فإذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء فيتأكد ، ولو قيل إذا هى شاخصة أو فهى شاخصة كان سديدا[٣] .

فبما إن إذا الفجائية قد تنوب عن الفاء إذن الفاء قد تفيد المفاجأة حين تقع موقع إذا الفجائية ، ومعلوم كذلك أن الفاء تفيد المطاوعة ككسرته فانكسر وضربته فبكى ، وقد ذكر ابن الأثير[٤] أنها من المواضع التى تلتبس فيها الفاء بالواو كما فى قوله تعالى : " ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا . "[٥]

ويرى الطاهر ابن عاشور أن أصل الفاء التفريع ما لم تبعد المناسبة[٦]، لأنها دالة على التقارن فى الوجود بين المعنيين التى تفرع بينهما ، ومثل لحسن العطف فيه بقول عمروبن كلثوم :

نزلتهم منزل الأضياف منا ∴ فجعلنا القرى أن تشتمونا [٧]

وقول ابن زمرك :

هب النسيم على الرياض مع السحر ∴ فاستيقظت فى الدوح أجفان الدهر

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٩٧ .
(٢) سورة الروم آية : ٣٦ .
(٣) حاشية الشمنى جـ ٢ ص : ٣ .
(٤) المثل الثائر جـ ٢ ص : ٢٦١ .
(٥) سورة الكهف آية : ٢٨ .
(٦) موجز البلاغة للطاهر ابن عاشور ص :٢٦
(٧) هذا تهكم أى نزلتم بأرضنا لحربنا فبادرنا بقتالكم ، فجعل نزولهم ضيافة وقتالهم إياهم قرى .

" الواو " جاء فى مغنى اللبيب أن الواو العاطفة معناها مطلق الجمع ، فتعطف الشىء على مصاحبه وسابقه ولاحقه ، وأورد آراء اً تخالف ذلك أيضا " كقول ابن مالك : " وكونها للمعية راجح ، وللترتيب كثير ولعكسه قليل " ، ويجوز أن يكون بين متعاطفيها تقارب أو تراخ نحو قوله تعالى : " إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين "[١] ، فإن الرد بعيد إلقائه فى اليم ، والإرسال على رأس أربعين سنة ، وقول بعضهم : إن معناها الجمع المطلق غير سديد ... وقول السيرافى : " إن النحويين واللغويين أجمعوا على أنها لا تفيد الترتيب مردود بل قال بإفادتها إياه قطرب والربعى والفراء وثعلب وأبو عمر الزاهد وهشام والشافعى"[٢] .

(١) سورة القصص آية : ٢٨ .
(٢) مغنى اللبيب جـ ٤ ص : ٣٥١ ـ ٣٥٤ .

التعقيب والخلاصة

وبعد هذا العرض لبعض ما تفيده حروف العطف يتبين أن : إن بل ، و لا ، ولكن ، وحتى ، وأم ، قد لا يهتم بها كروابط للوصل لعدم أصالة العطف فيها . كما سبق بيانه . ولمعرفة أمره معها حين بحثها فى الموضوعات التى تدرسها من جهة معانيها الأصيلة حيث يكون العطف مصاحبا لها .

إن كان هناك من يرى أن العطف : " إما بالواو المقتضية لأصل التشريك فى الحكم المتكلم فيه ، وإما بحرف آخر يدل على معنى زائد على التشريك أو على ضد التشريك إذا وجد ذلك الحرف نحو الفاء وحتى و أو و بل ... ثم شرط صحة العطف مطلقا ... وجود المناسبة ... ولهذا كان العطف أوسع فى هذه المناسبة المشروطة ، لأن الترتيب أو المهلة أو الغاية كلها مناسبات كافية لتصحيح العطف ؛ لأنها دالة على التقارن فى الوجود ، وهذا التقارن مهيء للمناسبة و مسوغ للعطف لكنه يزداد حسنا إذا قوى التناسب"(١) .

أما الواو و الفاء و ثم و أو فأرى أنه ينبغى اعتبارها جميعا حروفا للوصل لا غنى عنها فى دراسته أولى من أن يقصر على الواو خاصة ؛ ذلك أنه قد تبين مما سبق أنها تأتى لمعان غير ما هو مجمع عليه فيها، وأن هناك من آراء العلماء واجتهاداتهم ما يؤيدها، بل يمكن أن تحل أحدها موضع الأخرى ، فتكون بمنزلتها حينئذ مما يؤكد ما أذهب إليه ، ولماذا نقدر هذه فى مواضع تلك ، والمعنى ظاهر قريب ، والظاهر القريب أولى من التقدير البعيد ، فالأولى أن نترك الأمر على ظاهره . طالما أنه لا يتعارض مع الغرض المسوق له الكلام . ولا نرهن بالحرف معنى خاصا لا يتعداه ، فالواو و الفاء و ثم و أو

(١) موجز البلاغة للطاهر ابن عاشور ص : ٢٥ ، ٢٦ .

كلها حروف عطف ، والعطف أصيل فيها تعمله من دون شرط فما المانع إذن أن تفيد الواو الترتيب كما قال الفراء أو تفيد الفاء التراخى والمهلة مثل ثم كما سبق ذكره فى الآية الكريمة " فتصبح الأرض مخضرة "[1] ، أو تكون الفاء لمطلق الجمع من دون ترتيب كالواو كما فى قول امرىء القيس : ... بين الدخول فحومل ، أو تكون لمطلق الجمع كالواو أيضا كما فى الأمثلة العديدة السابق ذكرها .

ثم إن هذه الأحرف تفيد علاوة على التشريك معنى زائد ا عليه أحرى به أن يبحث عنه ؛ لأنه ليس واحدا فى كل مثال يقع فيه كما رأينا ، وإنما هو متعدد بتعدد المواقف والمناسبات، وأن يتأمل ما وراء تلك المواقف والمناسبات من معان أخر استتبعها استعمال الحرف فيها خاصة من دون سواه .

ولكل حرف من حروف العطف وظيفة يستدعيها السياق استمدادا من معناه الخاص فنراه رابطا بين الكلام بحيث لا يصلح فى موضعه سواه ، مما يوجب الاهتمام بجميع حروف العطف كأدوات وصل وربط فى السياقات المختلفة لمعرفة ما يكمن من سر أوأسرار وراء استعمال هذا الحرف فى الموقف المعين ولماذا كان هو ولم يكن غيره ؟ ، نرى هذا جليا فيما سماه العلماء بمتشابه القرآن وألفوا فيه المؤلفات الكثيرة ومنه ما يتصل بموضوع هذا البحث وأعنى به ما تاتى فيه الواو عاطفة فى آية والفاء فى مثيلتها أو الفاء فى آية وثم فى أختها أو تأتى الآية مرة موصولة بحرف العطف فى نسق ومفصولة من دونه فى نسق آخر فى تلاؤم معجزو دقة يقتضيها المقام .

وأذكر هنا بعضا منها فقط ليتبين الأمر ، على سبيل المثال :

---

(١) سورة الحج آية : ٦٣ .

قوله تعالى : " وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل "[١] وقوله تعالى : " فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم "[٢] .

فالسبب فى عطف هذا الآية بالفاء ههنا وعطف مثلها فى أول السورة بالواو : أنه تعالى حكى عنهم قبل هذه الآية أنهم يشمئزون من سماع التوحيد ، ويستبشرون بسماع ذكر الشركاء ، ثم ذكر بفاء التعقيب أنهم إذا وقعوا فى الضر والبلاء التجأوا إلى الله وحده ، فإن الفعل الأول مناقضا للفعل الثانى ، فذكر فاء التعقيب ليدل على أنهم واقعون فى المناقضة فى الحال ، وأنه ليس بين الأول والثانى فاصل ، على أن كل واحد منهما مناقض للثانى فهذا هو الفائدة فى ذكر فاء التعقيب ههنا ، فأما الآية الأولى فليس المقصود منها بيان وقوعهم فى التناقض فى الحال ، فلا جرم ذكر الله بحرف الواو لا بحرف الفاء[٣]، ويرى الزمخشرى أن الفاء جاءت مسببة عن قوله تعالى : " إذا ذكر الله " أى يشمئزون عند ذكر الله ويستبشرون عند ذكر آلهتهم ، فإذا مس أحدهم ضر دعا من اشمأز من ذكره دون من استبشر بذكره[٤] .

ومما هو من الفرق بين موضع الواو وموضع الفاء فى سياق آيات متشابهة قوله تعالى فى سورة هود:

---

(١) سورة الزمر آية :٨ .
(٢) سورة الزمر آية : ٤٩ .
(٣) ينظر تفسير الرازى جـ : ٢٦ ص ٢٨٨ .
(٤) الكشاف جـ ٣ ص : ٤٠٢ .

" ولما جاء أمرنا نجينا هودا ... "[١] وفى آخر السورة فى قصة شعيب : " ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا "[٢] ، فعطف " لما " على ما قبلها بالواو ، وقال فى قصتى صالح ولوط عليهما السلام : " فلما جاء أمرنا نجينا صالحا "[٣] ، وقال : " فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ..." [٤]، فعطف " لما " بالفاء دون الواو ؛ وذلك أن حرف الواو فى قصة هود بعد خروج من خبر عنه ، وهو حكاية لقوله إلى ما هو إخبار من الله تعالى عما كان من فعله ، ألا تراه قال تعالى : " قال إنى أشهد الله و اشهدوا أنى برىء مما تشركون "[٥] إلى قوله : " فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضروه شيئا "[٦] أى يهلككم ويقيم غيركم مقامكم فينزل بكم أكبر الضرر ، ولا تضروه شيئا بعبادتكم غيره ، ثم قال : " ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا و نجيناهم من عذاب غليظ "[٧] فلم يتقدم تخويف يقرب ما أوعدوا به ليدل على اتصال الثانى بالأول واقتضاء العطف بالفاء ، مكان العطف بالواو ، لأن المراد الجمع بين الخبرين من دون ذكر ما يقلل الزمان بين الفعلين .

وكذلك قصة شعيب لم يدل فيها على أنهم أوعدوا بعذاب قد أظلهم ، وقرب منهم ، وإنما أخبر عز وجل عن شعيب عليه السلام أنه قال لهم : " اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب

---

(١) سورة هود آية : ٥٨ .
(٢) سورة هود آية : ٩٤ .
(٣) سورة هود آية : ٦٦ .
(٤) سورة هود آية : ٨٢ .
(٥) سورة هود آية : ٥٤ .
(٦) سورة هود آية : ٥٧
(٧) سورة هود آية : ٥٨ .

يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب "[١] فلم يتوعدهم بالاقتراب ، بل دعاهم إلى الارتقاب ، فالتخويف قارنه التسويف لقوله تعالى : " سوف تعلمون " فكان الموضع موضع الواو لخروج ما قبله عما يقتضى اتصال الثانى به .

وليس كذلك الموضعان اللذان نسقا على الأول بالفاء وهما قوله تعالى فى قصة صالح : " فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب فلما جاء أمرنا نجينا صالحا " [٢]، وقوله فى قصة لوط : " فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب . فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها "[٣] فكان ذلك بعقبه غير متراخ عنه فاقتضى الفاء التى تدل على التعقيب واتصال ما بعدها بما قبلها من غير مهلة بينهما[٤] .

ومن مواضع التشابه بين الفاء والواو أيضا لكن مع الاستفهام قوله عز و جل : " أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا "[٥] وقال فى سورة الروم الروم : " أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم وأثاروا الأرض "[٦] .

فقوله فى سورة يوسف : " أفلم يسيروا فى الأرض " قبله : " وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى " معناه كان

---

(١) سورة هود آية :٩٣ .
(٢) سورة هود آية : ٦٥ ، ٦٦ .
(٣) سورة هود آية : ٨١ ، ٨٢ .
(٤) درة التنزيل للإسكافى جـ ٢ ص : ٧٩٠ ـ ٧٩٢ .
(٥) سورة يوسف آية : ١٠٩ .
(٦) سورة الروم آية : ٩ .

الرسل من القرى التى بعثوا إليها ، فلما طغوا نزل بهم من العذاب ما بقى أثره فى ديارهم من الخسف والانقلاب ، فصار المعنى : لم يكونوا إلا رجالا أرسلوا إليهم فخالفوهم ، فاعتبروا أتنم بآثارهم ومشاهدة ديارهم لتجتنبوا ما يجلب عليكم مثل حالهم .

وأما قوله فى سورة الروم : " أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض " فإنه لم يتقدمه ما يصير هذا كالجواب عنه إذ لم يجر ذكر حال أمة من الأمم خالفت نبيها فعوقب على فعلها ، بل الآية التى قبلها قوله : " أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون "[١] فكان الموضع موضع الواو .

وكذلك كل موضع تقدم : " أولم يسيروا فى الأرض " فإنه فى المواضع التى لا تقتضى الدعاء إلى السير والبعث على الاعتبار ، وكل موضع تقدم قوله تعالى : " أفلم يسيروا فى الأرض " فإنه فى موضع يقتضى الأول وقوع ما بعد الفاء[٢] .

ومن تشابه مواضع الفاء والواو فى المقاولات قوله عز وجل : " وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب "[٣] وقال فى سورة ق : " بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب "[٤] .

فالتى فى سورة "ق " خبر عن عجبهم فى أنفسهم واتصال قولهم به فكان آخر الكلام راجعا إلى أوله الذى هو خبر عن ضميرهم من

---

(١) سورة الروم آية : ٨ .
(٢) درة التنزيل جـ ٢ : ٨٠٣ ـ ٨٠٥ .
(٣) سورة ص : آية : ٤ .
(٤) سورة ق آية : ٢ .

حصول العجب فيه ، وهو قولهم عقيبه : " هذا شىء عجيب "، وليس كذلك ما فى سورة " ص " ؛ لأنه أخبر عنهم أنهم قالوا : " هذا ساحر كذاب " فلم يكن قولهم : " هذا ساحر كذاب " من مقتضى " عجبوا " كما كان قولهم :" هذا شىء عجيب " منه[١] .

ومن ذلك مما هو بين ثم والواو قوله تعالى : " متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد "[٢] بالعطف بثم وفى قوله تعالى : " ياأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير "[٣] بالواو، أى ذلك متاع فى الدنيا قليل ، والقليل يدل على تراخ وإن صغر وقل ، وثم للتراخى فكان طبقا له ، بخلاف ما ورد بالواو[٤] .

ومما هو بين ثم والفاء قوله تعالى : " قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين"[٥]

وقال تعالى :" قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين "[٦] فقوله : " سيروا فى الأرض فانظروا " يدل على أن السير يؤدى إلى النظر فيقع بوقوعه ، وليس كذلك " ثم " ألا ترى أن " الفاء " وقعت فى الجزاء ولم تقع فيه " ثم "

وقوله فى سورة الأنعام : " قل سيروا فى الأرض ثم انظروا " لم يجعل النظر فيه واقعا عقيب السير ، متعلقا وجوده بوجوده ، لأنه بعث على سير بعد سير لما تقدم من الآية التى تدل على أنه تعالى حداهم على

---

(١) درة التنزيل جـ ٣ ص :١١٠٠ ، ١١٠١ .
(٢) سورة آل عمران آية : ١٩٧ .
(٣) سورة التوبة آية : ٧٣ .
(٤) أسرار التكرار للكرمانى ص: ٩٤ .
(٥) سورة الأنعام آية : ١١ .
(٦) سورة النمل آية :٦٩ .

استقراء البلاد ومنازل أهل الفساد ، وأن يستكثروا من ذلك ليروا أثرا بعد أثر ، فى ديار بعد ديار قد عمهم أهلها بدمار ، لقوله تعالى : " ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم " ثم قال: "فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ." (١)

وفى ذلك ذهاب أزمنة كثيرة ومدد طويلة تمنع النظر من ملاصقة السير ، فجعل السير فى الأرض فى هذا المكان مأمورا به على حدة ، والنظر بعده مأمورا به على حدة ، فلذلك خصت بـ "ثم " التى تفيد تراخى المهلة بين الفعلين ، وسائر الأماكن التى دخلتها الفاء علق فيها وقوع النظر بوقوع السير ، لأنه لم يتقدم الآية ما يحدو على السير الذى حدا عليه فيما قبل هذه الآية(٢) .

(١) سورة الأنعام آية : ٦ .
(٢) درة التنزيل للإسكافى ص :٤٩١ ، ٤٩٢ .

الفصل
(الوصل بغير العطف)

ليس العاطف وحده هو الذى يصل بين الكلام بل إن وجود العاطف مؤذن بالمغايرة بين المتعاطفين ، كما أن وجود المناسبة ، و الجامع بين الكلام لابد منهما سواء وجد العاطف أم لا ، لذا وجدنا العلماء والنقاد مجمعين لا يشذ منهم أحد على أن فقدان المناسبة أو الجامع يفسد الكلام ويخل بصحة تركيبه ، ويكون معيبا حين يحدث هذا فيه .

وليس معنى الفصل ـ كما نظن أحيانا ـ أن الكلام معه أو ينقطع انقطاعا تاما ولا تصبح هناك لحمة نسبية حال مجيئه متتابعا خلف بعضه البعض من دون عاطف بل أشد قوة فى الربط من الوصل بالعطف ، فهو ليس وصلا فحسب ولكنه وصل ذاتى ومزج معنوى بين التراكيب ، ورابط خفى يغنى عن الربط بحرف العطف ، والدليل على هذا أننا نجده فى موطن التوكيد ، وعطف البيان ، والبدل ، وكلها مواطن تجعل الطرف الأول منها والثانى كالشىء الواحد ، ويسميه العلماء كمال الاتصال .

وفى مواطن القطع والاستئناف نجد المعانى تتواصل من طريق التركيب الأول ، كأنه أصل ينبثق منه فرع ، والثانى يبين عن معنى يثيره الأول ، وهذه لحمة العلاقة بين السؤال والجواب فيهما وإن كانا متغايرين نوعا إلا أنهما متلازمان لا يفترقان عند عدم ظهور أحدهما أثناء الكلام يقدر الآخر؛ لذا وجدنا البلاغيين يسمون هذا شبه كمال الاتصال ، ووجدنا الزمخشرى يرى من خلاله أن " الفصل وصل تقديرى خفى ، وأنه أقوى من الوصل الظاهر بحروف العطف ، وأن التنبه إلى هذا الوصل الخفى باب دقيق من أبواب علم البيان تتكاثر

محاسنه[١] . " كما أن " الجمل التى يقرر بعضها بعضا تتناسق من داخلها ويأخذ بعضها بعنق بعض ، وهذا التناسق الداخلى أقوى فى ترابطها من ذكر حرف النسق ، وفى ترتيب هذا النوع من الجمل ما يبين منه قوة الكلام وجودة بلاغته . "[٢] يقول فى قوله تعالى : " ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين " [٣]" وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة ... وذلك لمجيئها بعنق بعض ... لأنه . سبحانه . نبه أولا على أن الكلام المتحدى به ثم أشير أنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال فكان تقريرا لجهة التحدى ... ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب فكان شهادة وتسجيلا بكماله ... ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين فقرر بذلك كونه يقينا لا يحوم الشك حوله وحقا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . "[٤]

ومثلها الجمل التى تأتى على سبيل البيان تكون متحدة بالمبين ، فلو توسط بينهما عاطف لكان كما تقول العرب بين العصا ولحائها كما هو الحال فى آية الكرسى ، فالجملة الأولى فيها " بيان لقيامه بتدبير الخلق وكونه مهيمنا عليه غير ساه عنه ، والثانية لكونه مالكا لما يدبره ، والثالثة لكبرياء شأنه ، والرابعة لإحاطته بأحوال خلقه وعلمه بالمرتضى منه المستوجب للشفاعة ، وغير المرتضى ، والخامسة لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها أو لجلاله وعظم أمره"[٥] .

وقد يكون " سقوط العاطف تخييلا باستقلال الجمل فى معانيها كأن كل واحدة منها كافية للغرض المسوق له الكلام "[٦] إما فى سياق

---

(١) البلاغة القرآنية ص : ٣٥٩ .
(٢) البلاغة القرآنية ص : ٣٦٢ .
(٣) سورة البقرة آية : ١ ، ٢ .
(٤) الكشاف جـ ١ ص : ٢٩ .
(٥) الكشاف جـ ١ص : ٥ .
(٦) البلاغة القرآنية ص : ٣٦١ .

تعداد النعم أو بيانا لما قبله وإيضاحا له ، فتأتى الجمل متتابعة ولا رابط بينها كما فى قوله تعالى : " اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم "(١) " وقد يجرى مثل هذا فى الكلام يقال أكرمتك أحسنت إليك ملكتك الأموال وليتك الولايات ، ويحتمل أن يكون المراد من اللفظين واحدا ، ويكون المعنى علم الإنسان بالقلم ما لم يعلمه ، فيكون قوله : علم الإنسان ما لم يعلم بيانا لقوله : "علم بالقلم" (٢) " .

ومنها قوله تعالى : " الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان الشمس والقمر بحسبان "(٣) فالرحمن مبتدأ وهذه الأفعال مع ضمائرها أخبار مترادفة ، وإخلاؤها من العاطف ؛ لمجيئها على نمط التعديد كما تقول : زيد أغناك بعد فقر أعزك بعد ذل كثرك بعد قلة فعل بك ما لم يفعل بأحد فما تنكر من إحسانه "(٤) .

أما موطن كمال الانقطاع وهو الذى تكون فيه الجملتان مختلفتان من جهة الخبر و الإنشاء سواء فى اللفظ والمعنى ، أو بين جملتين لا مناسبة بينهما تصحح العطف ، وقد سبق بيانه أنه لا يعقل قول من دون لحمة نسبية بين الجمل حتى يكون تركيب الكلام فيه سليم سواء مع وجود العاطف أو عدمه ، وإنما يكون الفصل حينئذ لأمر عرض أو لحكمة خاصة فى توجيه المعنى بل إن الأولى فيه أن يسمى وصل خفى .

وأما الفصل لاختلاف الجملتين خبرا وإنشاء قد دار حوله خلاف كثير فى صحة دخول العطف فيه ، وعدم دخوله " حاصلة أن أهل

(١) سورة العلق آية : ١ ـ ٥ .
(٢) تفسير الرازى جـ ٣٢ ص : ١٧ .
(٣) سورة الرحمن آية : ١ـ ٥ .
(٤) الكشاف جـ ٤ ص : ٣٥٣ .

هذا الفن متفقون على منعه ، وظاهر كلام النحاة جوازه "[١] وهو واقع فى الكلام كثيرا ، وأوافق الدكتور محمد أبو موسى حيث يقول : إنه لاينبغى أن يعلل الفصل فيه من هذه الوجهة ؛ لأنه تعليل لا يحلل الأسلوب ولا يقف على ما بينه من روابط ، بل " نجد الروابط متينة وحية بين هاتين الجملتين ويتحقق فيها ما يتحقق فى غيرها ، فقد يكون الإنشاء توكيدا للخبر أو العكس ، وقد تكون إحداهما واقعة موقع الجواب عن الأخرى ... وعلاقات المعانى بين الجمل لم تتأثر بأن هذه خبر وتلك إنشاء، وإنما هما سواء من ناحية أنساب المعانى"[٢] فقوله تعالى: "وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم"[٣] جاءت الجملة الأولى منهما إنشائية والثانية خبرية ، ولكن الثانية واقعة موقع الجواب عن سؤال تثيره الأولى على تقدير ما أهمية الصلاة عليهم حتى تكون أمرا مرة من كمال الانقطاع ، ومرة من شبه كمال الاتصال ، " والنظرة الأولى نظرة صناعية لا تفيد فى تفهم الكلام وتذوق علاقاته بخلاف النظرة الثانية "[٤] .

وليس أدل على ذلك أكثر من مجيئه موصولا بحرف العطف فى قوله تعالى : " فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات"[٥] فالشاهد فى الآية الكريمة جاء فى موضعين كما ترى، ومثله قوله تعالى: " ولا تأكلوا مما لم يذكر عليه اسم الله وإنه لفسق"[٦] وقوله : "واتقوا الله ويعلمكم

(١) عروس الأفراح للسبكى ضمن شروح التلخيص جـ٣ ص:٢٦ .
(٢) دلالات التراكيب ص : ٣٢٤ .
(٣) سورة التوبة آية : ١٠٣ .
(٤) دلالات التراكيب ص : ٣٢٥ .
(٥) سورة البقرة آية : ٢٤ ، ٢٥ .
(٦) سورة الأنعام آية : ١٢١ .

الله"[١] وقوله: " كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق"[٢] وغيرها كثير لمن أراد أن يتتبع نظيرها سواء فى القرآن الكريم وغيره من الشعر وكلام العرب .

وقد حاول الدكتور محمد أبوموسى فض الخلاف فى هذا الباب وتقريب وجهات النظر بين البلاغة والنحو فى هذا النوع من الجمل فذهب إلى أن " الواو التى يسميها النحاة واو الاستئناف ، هى لعطف مضمون كلام على مضمون كلام آخر وعطف قصة على قصة ، سواء أكانت بين الخبر والإنشاء أو بين خبرين أو إنشائين "[٣] ولعله محق حين اعتمد هذا الرأى من خلال تعليق الزمخشرى على قوله تعالى : " فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا " حيث يقول : " ليس الذى اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشاكل من أمر أو نهى يعطف عليه ، إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين ، فهى معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين ، كما تقول : زيد يعاقب بالقيد والإرهاق ، وبشر عمرا بالعفو والإطلاق "[٤] وكذلك الفاء حينما تقع ذات الموقع كما فى الآية نفسها " فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار " وكذلك قوله تعالى : " وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من آله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم "[٥] وقبلها قوله تعالى : " ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فتور "[٦] وغيرها من الآيات الكريمة يمكن

(١) سورة البقرة لآية : ٢٨٢ .
(٢) سورة الحج آية : ٢٢ .
(٣) دلالات التراكيب ص : ٣٢٨ .
(٤) الكشاف جـ ١ ص : ٧٨ .
(٥) سورة الأعراف آية : ٧٣ .
(٦) سورة الملك آية : ٣ .

أن تخرج ذات المخرج أو غيره مما يتضح من خلال السياق ولكنه لا يبين إلا بالدراسة الخاصة والبحث والتحليل .

وعطف مضمون كلام على مضمون كلام أو ما عرف عن الزمخشرى من عطف القصة على القصة هو العطف الذى يكتفى فيه " بالتناسب بين القصتين ولا ينظر فيه إلى التناسب بين الألفاظ"(١).

وهو" من باب ضم جمل مسوقة لغرض إلى آخرى مسوقة لغرض آخر ... وقد يتم مثل هذا العطف على مقاطع متعددة فى الكلام ، وقد تقع هذه المقاطع على أجزاء كثيرة تأتى بالواو أو من دونها ... وتتواصل الجمل تواصلا كاملا أو شبه كامل أو تتغاير أو يتسلط عليها عامل ، فيحولها إلى مفردات إلى آخر ما يعترى الجمل من أحوال ، ولكنها فى مجموعها معطوفة بالواو التى بدأ بها المقطع الكبير على ما قبله عطف قصة على قصة "(٢) .

وقد أشار الإمام عبد القاهر إلى نوع آخر من العطف ربما كان هو الممهد لظهور النوع السابق أو المنبه عليه ، وهو عطف مجموعة من التراكيب على مجموعة آخرى ، وعقد له فصلا فى كتابه دلائل الإعجاز ووصفه بأنه فن من القول خاص ودقيق ، وأنه مما يقل نظر الناس فيه من أمر العطف ، ومما استشهد به لذلك قوله تعالى: "وماكنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ، ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آيتنا ولكنا كنا مرسلين "(٣) يقول : "لو جريت على الظاهر فجعلت كل جملة معطوفة على ما يليها منع منه المعنى ، وذلك أنه يلزم منه أن يكون قوله :

(١) البلاغة القرآنية ص : ٣٦٧ .
(٢) ينظر دلالات التراكيب ص : ٣٣٩ .
(٣) سورة القصص آية : ٤٤ ، ٤٥ .

" و ماكنت ثاويا فى أهل مدين " ، معطوفا على قوله : " فتطاول عليهم العمر " وذلك يقتضى دخوله فى معنى " لكن " ، ويصير كأنه قيل : " ولكنك ما كنت ثاويا " ، وذلك ما لا يخفى فساده ، وإذا كان كذلك بان منه أنه ينبغى أن يكون قد عطف مجموع " وما كنت ثاويا فى أهل مدين " إلى "مرسلين " ، على مجموع قوله :

" وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر " إلى قوله " العمر "[1] .

(١) الدلائل ص : ٢٤٧ .

بلاغة الفصل بالاستئناف

الاستئناف بعد القطع هو ما يسمى بالاستئناف البيانى ، وقد عده الطوفى البغدادى ضربا من الإيجاز وعرفه بأنه ابتداء كلام على جهة الجواب لسؤال مقدر ويعرف فى عرف البلاغيين بشبه كمال الاتصال ، وهو نوعان :

الأول يكون بإعادة الاسم نحو أكرمت زيدا ... زيد حقيق بالإكرام ، وما يكون بإعادة الصفة نحو أكرمت زيدا ... صديقى القديم أهل لذلك ، ومن أمثلته قوله تعالى: "لاريب فيه هدى للمتقين"(١) كأن قائلا قال : لم اختص المتقون بذلك ؟ فأجاب عن هذا السؤال بقوله : " الذين يؤمنون بالغيب " إلى آخر الصفات المشيرة إلى سببية اختصاصهم ، كأنه قال أهل هذه الصفات أحقاء بهذا التخصيص ، وإن جعلت هذه النعوت تابعة للمتقين ، وقدرت السؤال المذكور بعدها ، كان الاستئناف بـ " أولئك على هدى " فيكون مثالا لإعادة الاسم ، وإعادة الصفة أحسن لاشتمالها على الصفة المشيرة إلى بيان سببية الاختصاص بالوصف(٢)، حيث كان هذا الاستئناف " تعليلا للكلام السابق وفى هذا التعليل توكيد له وتقرير "(٣) .

الثانى : ما ليس بإعادة اسم ولا صفة ، ومنه قوله تعالى حكاية عن شعيب . عليه السلام . : " ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون"(٤) كأنه قال : اعملوا إنى عامل ، قالوا له وما يكون إذا كنت عاملا ؟ قال لهم : سوف تعلمون ما يكون (٥).

---

(١) سورة البقرة آية : ١ .
(٢) ينظر الأكسير فى علم التفسير ص : ٢٢٦ .
(٣) البلاغة القرآنية ص : ٣٦٤ .
(٤) سورة هود آية : ٩٣ .
(٥) الإكسير فى علم التفسير ص : ٢٢٧ .

وقد يكون هذا الاستئناف جزءا من محور المعنى الأول كما انبثق الحديث عن الذين آمنوا بطريق هذا الاستئناف بين قوله تعالى : " هدى للمتقين " وقوله : " إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون" وذلك أنه لما قيل هدى ، واختص المتقون بأن الكتاب لهم هدى ، اتجه لسائل أن يسأل فيقول: ما بال المتقين مخصوصين بذلك ، فوقع قوله: "الذين يؤمنون بالغيب " إلى ساقته ، كأنه جواب لهذا السؤال المقدر ... فذلك إدراج لهم فى حكم المتقين"[١] .

" وهكذا تولد الحديث عنهم مما سبقه ... فلم يصلح أن يكون جناح كلام فى مقابلة خبر الذين كفروا على حد " إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم "[٢] "[٣] ومن ثم جاء مفصولا عنه .

وكما وقع هذا الاستئناف متولدا من جملة مستدعاة من جملة أخرى قد يقع متولدا من جملة مستدعاة ضمن عدة جمل تطول أو تقصر حسب وفائها بالغرض المستدعى من الجمل المسوقة المتعددة الأغراض ، فتنقل النفس معها من غرض إلى غرض وتجد نفسك دائما نحو موقف جديد وهذا مذهب واسع فى الكلام ، وأكثر الأغراض المستأنفة ترجع إلى هذا النوع[٤] .

وعلى هذا الدرب لا يقع الاستئناف البيانى ضمن جمل مستأنفة فحسب ، بل قد يقع ضمن جمل معطوفة كذلك أملاها السياق

(١) الكشاف جـ ١ ص : ٤٣ ، ص : ٤٧ .
(٢) سورة الانفطار آية : ١٣ ، ١٤ .
(٣) دلالات التراكيب ص : ٣١٧ .
(٤) المرجع السابق بتصرف ص : ٣١٧ .

والغرض فيكون واقعا ضمن عطف قصة على قصة مما يجعله أكثر حسنا وفخامة .

ومن أجل هذا الاستئناف ما جاء فى التنزيل من لفظ " قال "مفصولا غير معطوف ؛ ذلك أنه يأتى على ما يقع فى أنفس المخلوقين من السؤال فيما بينهم وفق ما يجرى فى العرف والعادة ، ... لأن الناس خوطبوا بما يتعارفونه ، وسلك باللفظ معهم المسلك الذى يسلكونه ... ومما هو فى غاية الوضوح من هذا قوله : قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين "[1] وذلك لأنه لايخفى على عاقل أنه جاء على معنى الجواب ، وعلى أنه نزل السامعون كأنهم قالوا : فما قال له الملائكة ؟ ، فقيل : قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين "[2] .

وهذا القول واقع كثيرا فى القرآن الكريم وما جاء مثله فهذا هو التقدير فيه . والله أعلم . وهو من " أدق وألطف حالات الفصل أو الوصل الخفى فى التراكيب القرآنية التى تنبىء عن فنية عالية فى التعبير الإلهى الذى يعضد بعضه بعضا . "[3]

أما إذا دخلت الفاء أو الواو على لفظ القول فقد خرج عن هذا الاستئناف وأصبح وصلا ظاهرا بحرف العطف ولكل مقامه ، وسره البلاغى[4].

ومن الاستئناف البيانى ما كان بـ"إن" وهو كثير جدا فى التنزيل وللإمام عبد القاهر فصل فيه ثرى، من ذلك قوله تعالى:"ياأيها الناس

(١) سورة الحجر آية : ٥٧ ، ٥٨ .
(٢) ينظر الدلائل ص: ٢٤٠ ، ٢٤١ .
(٣) أسلوب الفصل والوصل فى القرآن الكريم د شكر محمود عبد الله ص : ١٦٣ .
(٤) ينظر هذا البحث ص : ٢٧ .

اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم "[١] وقوله عز اسمه : "يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور"[٢] وقوله سبحانه:"ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون "[٣] وقوله تعالى : "ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا إنا مكنا له فى الأرض "[٤] وغيرها كثير ، وكلها على تقدير سؤال قبل " إن " هى جواب عنه ، ومن أبرز ذلك وأوضحه قول بشار :

بكرا صاحبى قبل الهجير ∴ إن ذاك النجاح فى التبكير

فشأن إن حينئذ " أن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمرا عجيبا فأنت ترى الكلام بها مستأنفا غير مستأنف ، ومقطوعا موصولا معا ... وذلك أنك ترى الجملة إذا هى دخلت ترتبط بما قبلها وتأتلف معه وتتحد به ، حتى كأن الكلامين قد أفرغا إفراغا واحدا ، وكأن أحدهما قد سبك فى الآخر ، حتى إذا جئت إلى " إن " فأسقطتها رأيت الثانى منهما قد نبا عن الأول ، وتجافى معناه عن معناه ، ورأيته لا يتصل به ولا يكون منه بسبيل ، حتى تجىء " بالفاء " فتقول : " فذاك النجاح فى التبكير " ثم لا ترى الفاء تعيد الجملتين إلى ما كانتا عليه من الألفة ، ولا ترد عليك الذى كنت تجد بـ " إن " من المعنى "[٥]

وكونه للتأكيد هو ما يحوج إليها " وإنما تحتاج إليها إذا كان المخاطب له ظن فى الخلاف ، وعقد قلب على نفى ما تثبت أو إثبات

---

(١) سورة الحج آية : ١ .
(٢) سورة لقمان آية : ١٧ .
(٣) سورة هود آية : ٣٧ .
(٤) سورة الكهف آية ٨٣ ، ٨٤ .
(٥) ينظر الدلائل ص : ٢٧٣ ، ص : ٣١٦ .

ما تنفى ، ولذلك تراها تزداد حسنا إذا كان الخبر بأمر يبعد مثله فى الظن ، ولشىء جرت عادة الناس بخلافه كقول أبى نواس :

عليك باليأس من الناس ∴ إن غنى نفسك فى الياس

ومن لطيف مواقعها أن يدعى على المخاطب ظن لم يظنه ، ولكن يراد التهكم به كقول الشاعر :

جاء شقيق عارضا رمحه ∴ إن بنى عمك فيهم رماح

وإذا كان كذلك ، وجب إذا قيل إنها جواب سائل ، أن يشترط فيه أن يكون للسائل ظن فى المسئول عنه على خلاف ما أنت تجيبه به فأما أن يجعل مجرد الجواب أصلا فيه فلا "(١) .

ومن بليغ الاستئناف استعمال اسم الإشارة " هذا " فى ربط مقاطع الكلام بعضها ببعض كما فى قوله تعالى : " هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مئاب "(٢) **فالله تعالى " إنما شرح ذكر أحوال هؤلاء الأنبياء عليهم السلام لأجل أن يصبر محمد – عليه الصلاة و السلام – على تحمل سفاهة قومه ، فلما تمم بيان هذا الطريق وأراد أن يذكر عقيبه طريقا آخر يوجب الصبر على سفاهة الجهال وأراد أن يميز أحد البابين عن الآخر ، لاجرم قال هذا ذكر ، ثم شرع فى تقرير الباب الثانى فقال : "وإن للمتقين " كما إذا فرغ الكاتب من فصل من كتابه وأراد الشروع فى آخر قال هذا وقد كان كيت وكيت ، والدليل عليه أنه لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يردفه بذكر أهل النار قال : " هذا وإن للطاغين "**(٣) .

وهو وارد على جهة الإشارة إلى كلام سابق على سبيل وصله به وتأكيده ؛لأنه خلاصته " فإنه لما قص ما ذكره من حديث الأنبياء أيوب وإسماعيل واليسع وذى الكفل، أكد تلك القصص باسم الإشارة، والعطف

(١) ينظر الدلائل ص : ٣٢٥ ، ٣٢٦ .
(٢) سورة ص : ٤٩ .
(٣) تفسير الرازى جـ٢٦ ص : ٢١٨ .

بذكرها على ما سبق ، ليؤكد أمرها ويوضح حالها من أجل أن لا يخالج فيها لبس أو يعتبرها ريب "[١] ومثله ما جاء بعده " هذا وإن للطاغين لشر مآب "[٢] فكأنها وردت للعطف و الوصل لا للقطع والفصل حيث " وقع اسم الإشارة فى هذا المفصل موقعا كأنه معبرة تستروح عندها النفس ، وتجدد حيويتها ونشاطها لتستأنف شوطا جديد ا "[٣] .

ويرى الزمخشرى فى هذا النوع من الاستئناف ألوانا من البلاغة ويلحظ فيه قوة وفخامة حين يكون ردا لكلام سابق ووعيدا للذاهب إليه كما فى آية البقرة " الله يستهزىء بهم " فهو استئناف فى غاية الجزالة والفخامة لأن الله عز وجل هو الذى يستهزىء بهم الاستهزاء الأبلغ الذى ليس استهزاؤهم إليه باستهزاء ، وهو الذى يتولى الاستهزاء بهم انتقاما للمؤمنين ولا يحوج المؤمنين أن يعارضوهم باستهزاء مثله "[٤] .

وقد ينطوى الاستئناف على شىء من التعجب فيزيد الأسلوب حسنا وقوة تأثير كما فى قوله تعالى: " وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم "[٥] وهذه الجملة فى حسن استئنافها غاية ... وفى محتوى هذا الفعل دليل على التعجب من غير لفظ التعجب ألا ترى أن المعنى ما أشد استكبارهم ، وما أكبر عتوهم "[٦] .

---

(١) الطراز جـ ٢ ص : ١٠٢ .
(٢) سورة ص : ٥٥ .
(٣) دلالات التراكيب ص : ٣٤٣ .
(٤) ينظر البلاغة القرآنية ص : ٣٦٣ ، والكشاف جـ ١ ص : ٥ .
(٥) سورة الفرقان آية : ٢١ .
(٦) ينظر البلاغة القرآنية ص : ٣٦٤ ، والكشاف جـ ٣ ص : ٢١٥ ، ٢١٦ .

ومن بديع الاستئناف فى التنزيل ما جاء فيه التأكيد والإثبات بـ " إن هو إلا " فيكون هذا الإثبات والتأكيد تبيينا وتعيينا لما قبله وتكون قد أغنيت المخاطب عن الحاجة إلى أن يسأل كقوله تعالى : " وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر و قرآن مبين "(١) وقوله : " وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى "(٢) " أفلا ترى أن الإثبات فى الآيتين جميعا تأكيد وتثبيت لنفى ما نفى ؟ فإثبات ما علمه النبى . ﷺ. وأوحى إليه ذكرا وقرآنا ، وتأكيد وتثبيت لنفى أن يكون قد علم الشعر ، وكذلك إثبات ما يتلوه عليهم وحيا من الله تعالى ، وتأكيد وتقرير لنفى أن يكون نطق به عن هوى "(٣) .

ومن جميل الاستئناف بعد القطع كذلك المواضع التى يطرد فيها حذف المبتدأ حيث " يبدأون بذكر الرجل ، ويقدمون بعض أمره ، ثم يدعون الكلام الأول ، ويستأنفون كلاما آخر ، وإذا فعلوا ذلك أتوا فى الأمر بخبر من غير مبتدأ ، ومن جيد الأمثلة فى هذا الباب قول الشاعر يخاطب امرأته وقد لامته على الجود :

قالت سمية : قد غويت بأن رأت ∴ حقا تناوب مالنا ووفود
غى لعمرك لا أزال أعوده ∴ ما دام مال عندنا موجود

المعنى : " ذاك غى لا أزال أعود إليه ، فدعى عنك لومى "(٤) " وهذ باب واسع جدا ، ترى الكلام فيه يحمى عند مقطع معين فيؤز

(١) سورة يس آية : ٦٩ .
(٢) سورة النجم آية ٣ ، ٤ .
(٣) الدلائل ص : ٢٣٠ ، ٢٣١ .
(٤) الدلائل ص : ١٤٧ ، ١٥٢ .

النفس نحو غرض ويعطفها نحوه وتكون كأنها صارت ظمئة إلى مزيد من الكلام حول شىء فيه "[1] .

(١) دلالات التركيب ص : ٣١٥ .

ثانيا : الدراسة التطبيقية
الفصل والوصل فى سورة المدثر

تطالعنا السورة الكريمة بهذا النداء الجليل من رب العالمين لرسوله الأمين الشريف " ملاطفة فى الخطاب من الكريم إلى الحبيب إذ ناداه بحاله ، وعبر عنه بصفته ، ولم يقل يا محمد ويا فلان ، ليستشعر اللين والملاطفة من ربه كما تقدم فى سورة المزمل "[1] خاصة أنه كان – ﷺ– مرتعدا من رؤية جبريل . عليه السلام . آنذاك ثم ذكر سبحانه ما الذى يريده من وراء لفت انتباهه بهذا النداء، فقال جل وعلا: " قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فهجر ولا تمنن تستكثر و لربك فاصبر " وهى جمل إنشائية متعددة قد وصل بعضها ببعض عن طريق العطف بالواو للجمع بينها فى وجوب الإتيان بها جميعا على اختلاف المقصود فعله فى كل واحدة منها ، أما أول هذه الجمل " قم فأنذر " فقد جاءت مفصولة عن النداء على سبيل شبه كمال الاتصال بتقدير سؤال بعد النداء هو ماذا تريد أيها المنادى ؟ أو ما المطلوب منى ؟ فتكون الإجابة الجملة التالية للنداء ، وهذا هو الشأن دائما فى كل جملة تالية للنداء .

وقد جاءت الجمل المعطوفة مبنية على وتيرة واحدة من التركيب مع قصرها ، فبدت كعطف المفردات ، حيث ارتبط طرفى كل منها بالفاء ما عدا " ولا تمنن تستكثر " وهى : " قم فأنذر ، وربك فكبر، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولربك فاصبر " ، وهذه الفاء قيل إنها زائدة مثل : زيدا فاضرب أى زيدا اضرب[2]و لا شك فى أنها حين تكون زائدة فهى لتوكيد الربط و تقويته ، و قيل إنها لإفادة معنى الجزئية ،

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ ٢١ ص /: ٣٥٧ .
(٢) فتح القدير للشوكانى جـ٢ ص : ٩٠٤

والمعنى : قم فكبر ربك و كذلك ما بعده على هذا التأويل[١]، وقيل لإفادة معنى الشرط والتقدير وما كان فلا تدع تكبيره[٢] . وقيل إنها فاء السببية الواقعة بعد أما المحذوفة " و إنما يطرد ذلك إذا كان ما بعد الفاء أمرا أو نهيا وما قبلها منصوبا به أو بمفسر به "[٣] ، والسببية أحد الوجوه التى تفيدها الفاء العاطفة بل هو " الوجه الغالب فى العاطفة جملة أو صفة "[٤] أى أن ما قبلها سبب لما بعدها فيكون المعنى : قم من أجل الإنذار والتحذير من عذاب الله ، واختص ربك بالتكبير لأنه حرى به إذ لا إله غيره وليكن ثيابك طاهرة لأن طهارة المظهر توجب طهارة القلب و المخبر ، و عمل الرجز فاهجر ؛ لأنه مما يوجب الإثم ويؤدى إلى العذاب ، وكذلك " و لا تمنن تستكثر " على تقدير الفاء أى لا تمنن على ربك بما تتحمله من أثقال النبوة فيكون هذا سببا للاستكثار كالذى يستكثر ما يتحمله بسبب الغير أو " لا تمنن بالنبوة والقرآن على الناس ؛ فتأخذ منهم أجرا تستكثر به "[٥] أو لا تعط شيئا لتطلب أكثر منه وهذا خاص به . ﷺ . لأنه مأمور بأجمل الأخلاق وأشرف الآداب"[٦].

بل إن إسقاط الفاء فى تستكثر أبلغ من ذكرها ، لأن فيه دلالة على عقبى حصول المسبب تلو السبب مباشرة كأن الاستكثار دائما هو المسبب عن المن لا غيره ، وإذا صح هذا فإن سقوط الفاء يوحى بدلالة أخرى هى نفى الاستكثار عن النبى . ﷺ . أصلا أى يكون المعنى : إذا لم يحدث منك من فأنت لست بمستكثر على الإطلاق أبدا

---

(١) التفسير الكبير للرازى جـ ٣٠ ص : ١٩١ .
(٢) الكشاف جـ٦ ص :٢٥٢ .
(٣) حاشية الشمنى على مغنى اللبيب جـ ٢ ص : ٤ .
(٤) مغنى اللبيب لابن هشام جـ ٢ ص : ٤٨٥ .
(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٢١ ص : ٣٦٧ .
(٦) تفسير الجلالين جـ ٢ ص :٢٣١ .

؛ لأنه إذا كان الاستكثار مبنى على المن وهو مأمور بعدم المن فلن يفعله ، ومن ثم فلن يستكثر أبدا ، بخلاف وجود الفاء " لا تمنن فتستكثر " فيه إيحاء بصدور فعل الاستكثار أو بعضه منه ، فيبدو النهى كأنه نهى عن التمادى فيه ، والدليل على هذا أنه مع الفاء يصح . فى غير القرآن . تقدير و لا تمنن فتستكثر كما هو حاصل، وعلى سقوط الفاء لا يصح هذا التقدير فلا يقال : " ولا تمنن تستكثر كما هو حاصل " إذ كانت الفاء داخلة على الفعل لتفيد حصوله فى زمن الاستقبال ، والله أعلم .

ويؤيد هذا ما ذكره الرازى فى تفسير قوله سبحانه " والرجز فاهجر " حيث قال : " احتج من جوز المعاصى على الأنبياء بهذه الآية ، قال لولا أنه كان مشتغلا بها و إلا لما زجر عنها بقوله " والرجز فاهجر " والجواب : المراد منه الأمر بالمداومة على ذلك الهجران ، كما أن المسلم إذا قال اهدنا فليس معناه أنا لست على الهداية فاهدنا ، بل المراد ثبتنا على هذه الهداية فكذا ههنا "[1] .

ثم بعد ذلك بين سبحانه أن ما سبق من الأوامر والنواهى مما ينبغى الصبر عليه فقال جل وعلا : " ولربك فاصبر " أى اصبر على ذلك كله لوجه ربك متقربا بذلك إليه .

ثم يتلوا المولى ذلك بقوله : " فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير " ، وقد ذكر الزمخشرى و تبعه الرازى أن الفاء فى " فإذا نقر ..." سببية " كأنه قال : اصبر على أذاهم فبين أيديهم يوم عسير يلقون فيه عاقبة أذاهم ، و تلقى فيه عاقبة صبرك عليه "[2] والفاء فى فذلك للجزاء ويومئذ ظرف ليوم

(١) التفسير الكبير للرازى جـ ٣٠ ص : ١٩٣ .
(٢) ينظر الكشاف جـ٦ ص : ٢٥٤ .

عسير والمعنى فإذا نقر فى الناقور عسر الأمر على الكافرين فذلك وقت النقر وقوع يوم عسير ، لأنه يوم القيامة يأتى و يقع حين ينقر فى الناقور[١] . وقد سبق ذكر أن الفاء السببية أحد وجوه العاطفة ونستشعر من هذه الفاء عنصر المفاجأة فحين يحصل النقر يغفل الإنسان عن الامتثال لأوامر الله ونواهيه أو يعاند فلا يؤمن بها كحال الكافر فإذا به قد وصل لوقت النقر فى القرن فرآه حينئذ عسيرا ، يؤكد هذا اقتران الفاء بإذا الفجائية " وإنما تجامعها إذا كانت مقوية ومؤكدة لها ... وهى تقع فى المجازاة سادة مسد الفاء فإذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء فيتأكد "[٢] .

وقصر العسر على الكافرين وتأكيده بـ " غير يسير " " ليؤذن بأن لا يكون عليهم كما يكون على المؤمنين يسيرا هينا ، ليجمع بين وعيد الكافرين وزيادة غيظهم وبشارة المؤمنين وتسليتهم ، ويجوز أن يراد أنه عسير لا يرجى أن يرجع يسيرا ، كما يرجى تيسير العسير من أمور الدنيا "[٣] أو " أن عقدهم لا تنحل إلا إلى عقدة أشد منها بخلاف المؤمنين الموحدين المذنبين ، فإنها تنحل إلى ما هو أخف منها حتى يدخلوا الجنة برحمة الله تعالى "[٤] .

ويحتمل أن يكون "إنما وصفه الله تعالى بالعسر لأنه فى نفسه كذلك للجميع من المؤمنين والكافرين على ما روى أن الأنبياء يومئذ يفزعون، وأن الولدان يشيبون إلا أنه يكون هول الكفار فيه أشد"[٥].

يؤيده ما ورد عن الرسول ـ ﷺ ـ أنه قال: " كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته يستمع متى يؤمر فينفخ"[١]، وقال

(١) تفسير الرازى جـ٣ ص : ١٩٦ .
(٢) حاشية الشمنى جـ ٢ ص : ٣ .
(٣) الكشاف جـ٦ ص :٢٥٤ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ ٢١ ص : ٣٧١ .
(٥) تفسير الرازى جـ٣٠ ص : ١٩٧ .

أصحاب رسول الله . ﷺ كيف تقول ؟ قال : "قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا"[٢] وروى عن بعض المحدثين أنه قيل عن قاضى البصرة: "أمنا زرارة بن أوفى فلما بلغ " فإذا نقر فى الناقور " ...الآية خر ميتا"[٣]، فإذا كان الهول والروع حاصل هكذا قبل وقوع النقر أو النفخ فما بالنا بوقت وقوعه فلا شك فى أنه أيما هول وأيما شدة وعسر . يسر الله علينا جميعا . ثم يرجع السياق إلى ما كان عليه ليتمه ، فيقول سبحانه وتعالى : " ذرنى ومن خلقت وحيدا ، و جعلت له مالا ممدودا ، و بنين شهودا، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآيتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا " أى دعنى ومن خلقته وحيدا فى بطن أمه منفردا ، لا مال له ولا ولد، فإنى أكفيك فى الانتقام منه وأنفرد بهلكته ، والمفسرون على أنه الوليد بن المغيرة المخزومى حيث كان يسمى الوحيد فى قومه " قال ابن عباس : كان الوليد يقول : أنا الوحيد بن الوحيد، ليس لى فى العرب نظير ولا لأبى المغيرة نظير "[٤] كما فى قوله تعالى: " ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة "[٥] ، وفى هذا " تهكم به وبلقبه ، وصرفه عن الغرض الذى كانوا يقصدونه من مدحه والثناء عليه بأنه وحيد قومه ؛ لرياسته ويساره وزيادة عدد أولاده وتقدمه فى الدنيا إلى وجه الذم والعيب ، وهو أنه خلق وحيدا لا مال له ولا ولد، فأتاه الله ذلك فكفر بنعمة الله وأشرك به واستهزأ بدينه[٦].، فجعله وحيدا فى الشر و

(١) مسند أحمد جـ١ ص : ٣٢٦ .
(٢) مسند أحمد جـ ١ ص : ٣٢٦ .
(٣) تفسير الثعلبى جـ١٠ ص : ٧١ .
(٤) تفسير القرطبى جـ٢١ ص : ٣٧١ ، ٣٧٢ .
(٥) سورة الأنعام آية : ٩٤ .
(٦) ينظر الكشاف جـ٦ ص : ٢٥٥ .

الخبث بهذا التقدير الذى فكر فيه وقدره، ونظير هذا التهكم قوله تعالى:"ذق إنك أنت العزيز الكريم"(١).

وإنما خص بالذكر مع أن الناس خلقوا مثل خلقه ؛ لمزيد كفره وعظيم جحوده نعم الله عليه وإيذاء الرسول ﷺ . بهذا التقدير الذى قدره ، فقوله سبحانه وتعالى : " ذرنى و من خلقت وحيدا " وعيد وتهديد لهذا الخبيث الذى أنعم الله عليه بنعم الدنيا ، فكفر بها وقابلها بالجحود لآيات الله والافتراء عليها .

وقد ورد هذا الفعل هنا مفصولا عما قبله بينما ورد فى سورة المزمل " و ذرنى " موصولا بالعطف على ما يسبقه مع أن المعنى فيهما واحد والموقع لكل منهما متقارب فلِما جاء هذا بالوصل و ذاك بالفصل ؟ و الإجابة على هذا . والله أعلم . هى : أنه لما قال سبحانه وتعالى فى سورة المزمل : " قم الليل ، ورتل القرآن ، واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا واصبر على ما يقولون واهجرهم "(٢) اقتضى السياق الوصل بالعطف ، فقال تعالى : " و ذرنى و المكذبين ... " ؛ لأن سياق أفعال الأمر متصل من دون انقطاع ، أما فى سورة المدثر لم يأخذ الفعل " ذرنى " سياق العطف على سابقه ، لأنه انقطع عن الاتصال المباشر بما يسبقه من الأوامر ، لتوسط سياق معنى آخر بينهما هو قوله تعالى : " فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير " ، فصار ذرنى بعده ابتداء سياق جديد لذا ورد مفصولا عن سابقه غير معطوف عليه على سبيل الاستئناف كأنه إجابة لسؤال يطرح بعد اتجاه السياق وجهة أخرى غير الأمر و النهى ، هو : وهل بقى شىء آخر يتبع تلك الأوامر المتقدمة ؟.

(١) سورة الدخان آية : ٤٩ .
(٢) آية :٢ ،٤ ، ٨ ، ١٠ .

ثم عدد الله سبحانه وتعالى بعض ما أنعم عليه من البسط فى العيش وتراكم المال بعضه فوق بعض دوما من دون انقطاع والزيادة فى البنين وقرارة العين بهم والجاه العريض ومن يحرز هذا كله فهو فى غاية الكمال الدنيوى ، ولذا جاءت الجمل المعبرة عن تعداد هذه النعم معطوفة بالواو على أسلوب الوصل حيث كانت جمل خبرية تضمها مناسبة تعداد النعم ، وقد تخللها شىء من عطف المفردات هى قوله تعالى : " و جعلت له مالا ممدودا و بنين شهودا " فقد عطف البنين الشهود على المال الممدود وهما غاية ما يتمناه المرء من زينة الدنيا وكمال التمتع بها ، وقد قدم المال على البنين ؛ لأن نوال المال مدعاة لطلب البنين لأجل الاستفادة منه والمعاونة فى رعايته .

ويتلو هذا عطف آخر بـ " ثم " ولكن نلحظ فيه معنى آخر لـ " ثم " غير ما عهد فيها من الترتيب والتراخى ، فقوله ـ جل وعلا ـ بعد تعداد تلك النعم : " ثم يطمع أن أزيد " تعجب واستنكار للطمع فى الزيادة التى يطلبها بعد جحوده وافترائه فلفظ " ثم " ههنا معناه التعجب كما تقول لصاحبك : أنزلتك دارى وأطعمتك وأسقيتك ثم أنت تشتمنى ، ونظيره قوله تعالى : " الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات و النور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون "[1] "[2] كما تفيد كذلك " استبعاد و استنكار طمعه و حرصه على الزيادة حيث قيل إنه كان يقول ـ أى الوليد بن المغيرة ـ : إن كان محمد صادقا فما خلقت الجنة إلا لى "[3] ؛ لذا قابله المولى سبحانه بقوله : " كلا " ردعا وزجرا له برفض إعطائه الزيادة التى يطلبها رفضا قاطعا

(١) سورة الأنعام آية : ١ .
(٢) تفسير الرازى جـ ٣٠ ص : ١٩٩ .
(٣) الكشاف جـ ٦ ص : ٢٥٥ .

بهذا الأسلوب الدال على التيئيس وقطع الرجاء " فلم يزل يرى النقصان فى ماله وولده حتى هلك "[١] .

ثم تأتى ثلاثة مواضع فصل متتالية هى قوله تعالى : " إنه كان لآيتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، إنه فكر و قدر " ، فجملة " إنه كان لآيتنا عنيدا " تعليل لحرمانه من الزيادة و بيان لسبب قطع رجائه فيها ، فموطن الفصل فيها هو شبه كمال الاتصال أو الاستئناف البيانى كأن قائلا قال : لما لا يزاد ؟ فقيل : إنه عاند آيات المنعم و كفر بذلك نعمته ، و الكافر لا يستحق المزيد "[٢] ، و فى الآية " إيماء إلى أن كفره كفر عناد ، فهو يعرف الحق بقلبه ، و ينكره بلسانه ، و هذا أقبح أنواع الكفر "[٣] ؛ لذا كان الجزاء إرهاقه و إلجاءه إلى الصعود و هو : " جبل من نار يتصعد فيه الكافر سبعين خريفا ثم يهوى كذلك فيه أبدا ، أو هو صخرة فى جهنم إذا وضعوا عليها أيديهم ذابت فإذا رفعوها عادت "[٤] أو هو " مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعد الذى لا يطاق "[٥] ، فجملة " سأرهقه صعودا " هى أيضا على أنها جواب لسؤال مقدر : فماذا يكون جزاؤه إذن ؟ فهى مسببة عن الجملة الأولى إذ كان عناده هو السبب فى خصوصية هذا العذاب لذا وردت مفصولة عما قبلها و كذلك ورد ما بعدها مفصولا عنها وهو قوله تعالى : " إنه فكر و قدر " فقد ذكر الزمخشرى فيه احتمالين أنه تعليل للوعيد ، أو أنه بدل من قوله " إنه كان لآياتنا عنيدا بيانا لكُنه عناده "[٦] ، فعلى الأول هو استئناف على تقدير سؤال لماذا كان

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٢١ ص : ٣٧٤ .
(٢) الكشاف جـ ٦ ص ٢٥٥ .
(٣) تفسير المراغى جـ ٢٩ ص ١٣٢ .
(٤) تفسير القرطبى جـ ٢١ ص : ٣٧٦ .
(٥) الكشاف جـ ٦ ص : ٢٥٥ .
(٦) المرجع السابق جـ ٦ ص : ٢٥٦ .

عذابه هكذا ؟ فكان الجواب لأنه فكر وقدر ، وعلى الثانى فهو من كمال الاتصال على أنه بدل أو عطف بيان لتوضيح كيفية عناده ، وهو أنه فكر وقدر وقال ما قال مما أعجب قريش وطبق ما كانوا يتمنون من القدح فى الرسول ﷺ . والطعن فيما جاء به والتقدير الثانى هو الأوفق لظهوره من السياق ، وإنما توسط الحديث عن الجزاء والعذاب بينهما مسارعة ببيان فورية استحقاقه وأنه حكم قاطع لن يلغى أو يتراجع عنه فيما بعد وأن هذا العذاب هو جزاء العناد خاصة فكان أحرى ذكره مباشرة تلو ما أوجبه .

ثم عُطف على هذا القول عدة جمل تبادل موقع العطف فيها بين الفاء و ثم ، أولها : " فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر " وهو دعاء صرف عما يرد مثله فيه من التعجب لإصابة المحز إلى اللعن والتعذيب تهكما واستهزاء ؛ ذلك لأن مثل هذا القول " يذكر عند التعجب والاستعظام كقولهم : قتله الله ما أشجعه ، وأخزاه الله ما أشعره ، ومعناه : أنه بلغ المبلغ الذى هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده بذلك "[1] والمعنى لعن لعنا بعد لعن .

وكان الأول بالفاء لإفادة السببية والترتيب أى أن ما فعله يستدعى أن يقال فيه ذلك ، كما يُتحسس فيها الإشارة إلى الجزاء ، وقد ضمنت " ثم " التى بعدها شيئا منه كذلك أى فجزاؤه القتل واللعن والعذاب ؛ ثم هو جزاؤه مرة بعد أخرى مرارا وتكرارا ومهما يكن فلن يوفى جزاء ما فكر فيه وقدره .

" والمقصود من كلمة " ثم " ههنا الدلالة على أن الدعاء عليه فى الكرة الثانية أبلغ من الأولى "[2] فالتغاير فى حرف العطف يشير

(١) تفسير الرازى جـ ٣٠ ص : ٢٠٠ .
(٢) تفسير الرازى جـ٣٠ ص : ٢٠٠ .

إلى التغاير فى المعنى بين الجمل الداخل عليها وإن كان الظاهر التكرار فالدعاء الثانى غير الدعاء الأول ، فإن كان الأول شديدا فالثانى أشد منه وهو مسوق على أن يحصل له مرة أخرى غير الأولى وفى هذا غاية التهكم والسخرية والاستهزاء ، وإنما استفيد هذا كله من تغاير حرف العطف فى ذات الموضع الواحد ، و لو قصد تأكيد نفس الدعاء بتكراره ، لتكرر بالفاء و لم تأت " ثم " .

ويتوالى العطف بـ " ثم " على مدى ثلاث آيات متوالية هى : " ثم نظر ثم عبس و بسر ثم أدبر و استكبر " و لـ "ثم " هنا خصوصية معنى من دون غيرها من حروف العطف فهى هنا عملت على إبراز هيئة التروى فى التفكير والتقدير على طريقة التدبير أى أنه بعدما فكر وهيأ المعنى فى نفسه نظر فيما قدره ورتبه كلاما يلقى قبولا وبعدما أعجب به عبس وبسر[1]؛ لأنه كان يعلم أن الذى يقوله كذب وبهتان ، ولو كان معتقدا صحته لفرح باستنباطه وإدراكه ، ثم أدبر واستكبر وأعرض عما وجده من كذب تقديره عنادا واستكبارا ، لأنه ما كان ليجد شبهة أجود من تلك الشبهة ، هذا بخلاف الواو بين عبس وبسر ، وأدبر واستكبر فهى إنما استعملت هنا خاصة لحصول كل منهما مصاحبا للآخر حال حدوثه بلا ترتب أو تروى .

ثم كان بعده " فقال إن هذا إلا سحر يؤثر " فوصل قوله بالفاء ؛ لأنه مترتب عما سبق صدوره منه من الأفعال السابقة أى أنه بعدما تأنى فى التأمل تمهل فلما قرر التولى و الاستكبار ذكر هذه الفرية عقيب التولى لأن " الكلمة لما خطرت بباله بعد التطلب لم يتمالك أن نطق بها من غير تلبث "[2] .

---

(١) عبس : قطب مابين عينيه . اللسان جـ٤/٢٧٨٤ . بسر : نظر بكراهة شديدة ، أو كلح . اللسان جـ ١ / ٢٧٩ .
(٢) الكشاف جـ ٦ ص : ٢٥٧ .

فلما قال قوله هذا أكده بما جاء بعده " إن هذا إلا قول البشر " لذا جاء مفصولا عما قبله من دون عطف فقوله الأول معناه ما هذا الذى يقرأه محمد إلا سحر يروى ويحكى مأثورا عما سبقه وقوله الثانى معناه : ما هو إلا قول البشر السابقين أتاه مرويا ومحكيا عنهم .

وقوله تعالى : " سأصليه سقر " هو نظير قوله تعالى سابقا " سأرهقه صعودا " فهو استئناف لبيان جزاءه على ما افتراه واختلقه ، فجاء مفصولا عن سابقه على تقديره إجابة لسؤال اقتضاه المقام .

وذكر الزمخشرى إن " سأصليه سقر " بدل من " سأرهقه صعودا "[1]. فأشار بهذا إلى أن موضع الفصل هو كمال الاتصال لأجل البدل ولكن القول بالبدل يقلل من العذاب ويخفف من شدة الجزاء ،لأنه يكون بمعنى ان الاصطلاء بسقر بدل من الارهاق بصعود ، فالأخير ملغى بالأول والمقام مقام تهديد ووعيد وتصعيد للعذاب طبقا لفداحة الفعل .

كما أن " صعود " على ما قيل فيه إنه جبل فى جهنم ، وقد نقل عن ابن عباس أنه " اسم للطبقة السادسة من جهنم "[2] فقد يكون العذاب به جزءا من العذاب بها وقد يكون هذا غير ذاك ، المهم أنهما مختلفان ، مما يجعل موطن الفصل أقرب للتفسير الأول الذى هو الاستئناف، ومعنى سأصليه صقر "سأغمره فيها من جميع جهاته"[3].

أما الجمل التى أتت بعدها فسبب الفصل فيها أنها جاءت عطف بيان لسقر على جهة التفصيل لبيان الأوصاف التى تكون عليها ، ولو

(١) الكشاف جـ ٦ ص : ٢٥٧ .
(٢) تفسير الرازى جـ ٣٠ ص : ٢٠٢ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص : ٢٦٦ .

قلنا إن كل جملة منها وردت نعتا كالمفردات لم نخطىء لأن حالها كذلك ، فـ " لاتبقى ولا تذر " وصف لأنه لا يلقى فيها شىء إلا أهلكته وإذا هلك لم تذره هالكا حتى يعاد "[١] أو " لا تبقى من فيها حيا ولا تذره ميتا ، تحرقهم كلما جُددوا "[٢] ، و " لواحة للبشر " وصف لكيفية إحراقها تلفح الجلد لفحة فتدعه أشد سوادا من الليل"[٣] ، و " عليها تسعة عشر " وصف لها كذلك على أنه بيان لعدد خزنتها من الملائكة ، فهم مُحكِمون لها .

وجملة " وما أدراك ما سقر " فالواو فيها لا تشعر بالعطف بل هى واو خاصة تأتى لمثل هذا الأسلوب حين يراد تفخيم أمر الشىء والتهويل من فعله ونظيرها كثير ، وحق مثل هذه الواو أن تسمى واو التفخيم ، وإن صح هذا فالجملة حينئذ فى عتاد الجمل المفصولة لأن الواو فيها للاستئناف وليست للعطف ، والمعنى وأى شىء أعلمك ما سقر ؟ فقد بلغت فى الوصف حدا لا يمكن معرفته ، ولا يتوصل إلى إدراك حقيقته .

ثم يقول المولى عزوجل: "وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا" فالواو لعطف مضمون كلام آخر حيث أجرى الكلام فيه على أنها عطف على بقية الحديث مع الرسول . ﷺ - تجاهلا لحديثهم وانتظارهم الرد عليه مباشرة منه سبحانه وتعالى تهكما وازدراء لهم ، فالمعنى . والله أعلم . و اعلم يا محمد أنه ما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة لا بشرا و لا جنسا مما يعلمون حتى يتعاطوا غلبتهم فيقول أحدهم لأقرانه أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم

(١) الكشاف جـ ٦ ص : ٢٥٧ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٢١ ص : ٣٨١ .
(٣) الكشاف جـ ٦ ص : ٢٥٧ .

فأنا أكفيكم عدد كذا و أنتم تكفونى عدد كذا ، كما روى عن أبو الأشد بن أسيد بن كلدة الجمحى أنه قال هذا(١).

وفى جعلهم ملائكة خلاف لجنس المعذبين فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرأفة والرقة ، ولا يستروحون إليهم ، ولأنهم أقوم مَن خلق الله بحقه وبالغضب له ، ولأنهم أشد الخلق بأسا وأقواهم بطشا لا شك ، فقد روى عن وصفهم كأن أعينهم البرق ، وكأن أفواههم الصياصى يجرون أشعارهم ، لأحدهم مثل قوة الثقلين ، يسوق أحدهم الأمة وعلى رقبته جبل فيرمى بهم فى النار ويرمى بالجبل عليهم"(٢).

وجملة: "وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا " معطوفة على " وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة " ومثلها جملة " وما يعلم جنود ربك إلا هو " ومثلها ما بعدها " وما هى إلا ذكرى للبشر " أى وما سقر وصفتها إلا تذكرة للبشر ، فكلها معطوفة على بعضها استكمالا للعطف المستأنف فى جملة " و ما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة " أما الجملة التى توسطت بينها و هى : " ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا " فهى جمل عطفت على بعضها بشكل مستقل عن العطف السابق ذكره لأنها معددة لبيان سبب جعل العدد فتنة ، فهى جمل صغيرة وصلت بالعطف داخل جمل أكبر وأعم منها فى الوصل .

ولم يخل السياق من عطف المفردات ، فتقديم الذين أوتوا الكتاب على المؤمنين سببه أنهم كانوا هم العدد الغالب ، إذ كان الإسلام فى

(١) الكشاف جـ ٦ص : ٢٥٨ .
(٢) الكشاف جـ ٦ ص : ٢٥٨ .

بداية الدعوة إليه ، فالذين أوتوا الكتاب هم الأكثر احتياجا إلى الاستيقان وعدم الارتياب والاعتقاد القاطع بصحة ما يُدعى إليه.

كما قدم الذين فى قلوبهم مرض على الكافرين فى السؤال ماذا أراد الله بهذا مثلا ، لأن المقصود بالذين فى قلوبهم مرض المنافقون ، وهم أكثر ما يترددون ويتشككون فيما يعتقدون ، ولأن إظهارهم الإيمان كذب وبهتان ومن ثم انبهم عليهم الأمر ، فلم يدركوا المراد من ضرب المثل بهذا العدد لأنه ليس لهم قلب المؤمن الصادق الذى يهديه إلى معرفة الحكمة وفطنة التقدير ، فضلا عن الكافرين الذين يستجلبون بجحودهم وعنادهم الغشاوة التى تطبع على قلوبهم وعقولهم .

ونظير هذا العطف عطف الفعلين "يضل" و"يهدى" فهما جملتان نسقت كل منهما على أن تكون فى محل رفع خبر اسم الإشارة " كذلك " وهو ما يشير إليه الإمام عبد القاهر من أن مثل هذه الجمل التى لها محل من الإعراب شأنها شأن عطف المفردات ، وقد قدم الضلال على الهدى مع أن الأفضل دائما هو الذى يقدم على ما دونه ؛ ذلك لأن الموقف موقف الحديث عن الضالين وعما هم واقعون فيه من الضلال من التكذيب والعناد واستنكار ما يقال والاستهزاء به خاصة فيما يتصل بالحديث عن عدد خزنة النار من الملائكة .

وانظر إلى جمال الاستئناف باسم الإشارة " كذلك " وكيف جاء التشبيه عن طريقه ، ليبين أن الاختلاف فى الدين سنة من سنن الله تعالى ، أى " كما أضل الله هؤلاء المنافقين والمشركين القائلين عن عدة خزنة جهنم: أى شىء أراد الله بهذا الخبر حتى يخوفنا بعدتهم؟

يضل الله من خلقه من يشاء ، فيخذله عن إصابة الحق ، ويهدى من يشاء منهم ، فيوفقه لإصابة الصواب "[1] .

وهكذا تلمح فى الآيات الكريمة أشكالا من الوصل عجيبة التنسيق والربط فهذا هو عطف مفردات داخل جمل نسقت بالعطف بشكل أكبر قد شملتها جمل وصلت بالعطف كذلك لكن بشكل أوسع وأشمل وكانت حلقة وصل بين بداية السورة وآخرها فى ترابط قوى متين لا تنحل عقده .

ويأتى استئناف بـ " كلا " مرة ثانية و يتكرر بها مرة ثالثة ورابعة فى ذات السورة ، وفى كل مرة قد حسن موضعه بها كما حسن فى المرة الأولى فتجدها هنا فى قوله تعالى : " كلا والقمر والليل إذ أدبر والصبح إذا أسفر أنها لأحدى الكبر نذيرا للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر " قد صحبها القسم ببعض خلق الله الجليل من القمر والليل والصبح ، ومعنى القسم بها تأكيد أنهم ما رأوا أعظم من هذا خلقا ، ولكن فيما لم يروه ما هو أعظم منه و" سقر " هى إحدى هذه الكبر والعظائم فـ " كلا " معناها الردع والإنكار أى ليس الأمر كما يرون ويزعمون أنهم يستطيعون مقاومة خزنة النار ويستقلون عددهم استهزاء وينكرون أن يكون هذا نذيرا لهم يردهم عما يفعلونه كما أن " كلا " تفيد نفى وإنكار ما جاء قبلها مباشرة من قوله تعالى : " و ما هى إلا ذكرى للبشر " فبعد أن جعلها سبحانه ذكرى للبشر نفى الذكرى عنهم إنكارا لأن يتذكروا .

وفى قوله تعالى: "إنها لأحدى الكبر نذيرا للبشر " ترى " كلا " واصلة بين ما يستأنف من الكلام بعدها وما قبلها ، وهى تشبه فى هذا

(١) تفسير المراغى جـ ٢٩ ص : ١٣٧ .

الاستئناف والربط اسم الإشارة كما فى قوله تعالى : " هذا وإن للطاغين لشر مآب" ونحوه ولكنه يأتى للإثبات وهى تأتى للنفى .

وقد تعاونت مع القسم فى تأكيد ثبوت المقسم عليه وهو : "إنها لأحدى الكبر " مع تضمين التأكيد على كمال قدرته وحكمته بهذه المخلوقات العظيمة التى أقسم بها الله تبارك وتعالى .

والآيتان : " نذيرا للبشر " و " لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر " تابعتان لآية " إنها لأحدى الكبر " فنذيرا " تمييز من إحدى على معنى : إنها لإحدى الدواهى إنذارا كما تقول : هى إحدى النساء عفافا ، وقيل هى حال "[1] من الضمير فى أنها وذكِر لأن معناه العذاب[2] .

و " لمن شاء " بدل من " للبشر " أى أنها منذرة للمكلفين من البشر الذين إن شاءوا تقدموا ففازوا وإن شاءوا تأخروا فهلكوا[3]، ويؤيده التخصيص بـ " منكم " وهى خطاب للبشر وفق خصوصية مناسبة نزول الآيات فى الوليد بن المغيرة ورهطه .

ثم تجد استئنافا آخر فى قوله تعالى : " كل نفس بما كسبت رهينة " ومعلوم أن " كل " تفيد العموم والشمول ، لما تدخل عليه ، فالاستئناف بها مفاده أن الكلام المستأنف شامل لما تسند إليه ويجرى الحديث عنه وشكلت " كل " حلقة وصل معنوى خفى بين ما أتى قبلها وما استؤنف من الحديث بعدها ، فالله عزوجل "لما أقام الحجة و بين المحجة ارتهن كل نفس بكسبها ، وأخذها بذبها واستثنى من أولئك من قبل هداه واتبع رضاه ، وهم أصحاب اليمين الذين أمنوا بالله و صدقوا المرسلين ، و سلكوا غير سبيل المجرمين الذين ليسوا من

(١) الكشاف جـ ٦ ص : ٢٦١ .
(٢) ينظر القرطبى جـ ٢١ ص : ٣٩٣ .
(٣) ينظر الكشاف جـ ٦ ص : ٢٦١ .

المصلين ، ولا من مطعمى المسكين ، وهم من أهل الخوض مع الخائضين المكذبين بيوم الدين ، فهذه أربع صفات أخرجتهم من زمرة المفلحين وأدخلتهم فى جملة الهالكين "[١] .

لذا جاءت الجمل المعبرة عن هذه الصفات موصولة بالعطف على بعضها ، أما ما كان موقعه السؤال والإجابة عنه فقد أتى مفصولا عن بعضه من دون عطف وهو تساؤل أصحاب اليمين عن المجرمين : ما سلككم فى سقر ؟ وإجابتهم عنه : " قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين " .

و"رهينة" من الرهن أى كل نفس مرتهنة بكسبها عند الله غير مفكوكة عنه ، كافرة كانت أو مؤمنة ، عاصية أو طائعة ، إلا أصحاب اليمين فإنهم فكوا رقابهم بحسن أعمالهم ، كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق الذى وجب عليه .

والفاء فى " تنفعهم شفاعة الشافعين " سببية أى لأجل اتصافهم بهذه الصفات لا تنفعهم شفاعة شافع يوم القيامة " لأن الشفاعة إنما تنجح إذا كان المحل قابلا فأما من وافى الله كافرا يوم القيامة فإنه له النار لا محالة ، خالدا فيها "[٢] .

أما الفاء بعدها فى قوله تعالى : " فما لهم عن التذكرة معرضين فقد رتبت على المعنى السابق التعجب من إعراضهم عن الذكر ذلك أنها دخلت على " مالـ ... " وهو أسلوب استفهام يفيد التعجب فتعاونت معه فى إبراز جهة وصله بما قبله ، وفى هذا إنكار لإعراضهم عن التذكرة على ما قبله من موجبات الإقبال عليها ،

(١) بدائع التفسير جـ ٥ ص : ٦٦ .
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٨ ص : ٢٧٤ .

والمقصود بالتذكرة : التذكير بما ورد فى القرآن الكريم مما جاء به محمد ـ ﷺ ـ من المواعظ كما مر فى الآيات السابقة .

وقد تلا هذه الآية استئناف آخر تم عن طريق التشبيه بكأن وهو قوله تعالى : " كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة " وهو مسوق لبيان كيفية إعراضهم وتمثيل هيئتهم حين يقع الإعراض منهم ، فشبههم فى إعراضهم ونفورهم عن القرآن واستماع الذكر والموعظة وجهلهم بما بعث الله به رسوله بحمر جدت فى نفارها مما أفزعها كأنها رأت قسورة ، والقسورة هى : جماعة الرماة الذين يتصيدونها وقيل الأسد وقيل ركز الناس وأصواتهم ، و قيل ظلمة الليل[١]، والأوليان أقرب ؛ لوضوح النفور فيهما .

وفى تشبيههم بالحمر غاية الذم لهم واستهجان لفعلهم " و شهادة عليهم بالبله و قلة العقل "[٢] فإنهم نفروا عن الهدى الذى فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عما يهلكها ويعقرها [٣].علاوة على ما فى شكل الحمر حين تفر مما يريبها ، والمستنفرة اسم فاعل من استنفر ، والتعبير به أبلغ من اسم الفاعل الثلاثى " نافرة " ؛ لأن " فى الاستفعال من الطلب قدر زائد على الفعل المجرد ومعناه أنها لشدة نفورها قد استنفر بعضها بعضا وحضه على النفور ، فكأنها تواصت بالنفور وتواطأت عليه[٤] .

وقوله تعالى : " بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة " ليست "بل " فيه عاطفة ؛ لأنه لم تتحقق لها شروط العطف بها وإنما هى للإضراب أى بل مما يدعو للعجب من أمرهم واستنكار فعلهم

(١) ينظر الكشاف جـ ٦ ص : ٢٦٣ .
(٢) المرجع السابق جـ ٦ ص : ٢٦٣ .
(٣) ينظر بدائع التفسير جـ ٥ ص : ٦٧ .
(٤) ينظر التفسير القيم لابن القيم ص : ٥٠٣ .

ويشهد عليهم بالبله وقلة العقل ما يطلبونه من إتيان كل واحد منهم كتابا ينشر عليه يقرأ فيه ما يخصه من حاله ليتأكد من صدق ما وجه إليه من قبل الرسول " ذلك أنهم قالوا لرسول الله . ﷺ - : لن نتبعك حتى تأتى كل واحد منا بكتب من السماء عنوانها من رب العالمين إلى فلان بن فلان ، نؤمر فيها باتباعك ، ونحوه قوله : " ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه "[1] وقيل : قالوا إن كان محمد صادقا فليصبح عند رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار "[2] .

ويأتى استئناف بـ " كلا " للمرة الثالثة ولكن فى هذه المرة تجدها قد اقترنت بـ " بل " فاندمج معناهما وصار كل منهما يؤكد الآخر وأصبح مسار الآية يتوجه إلى أمرين لا واحد ، الأول : الرد عليهم بالردع و الزجر و التوبيخ على اقتراحهم للصحف المنشرة و نفى تحقق ما يريدون أى لا يؤتونها .

الثانى : بيان سبب إعراضهم عن التذكرة وأنه ليس لامتناع إيتائهم الصحف بل لأنهم لا يصدقون بالآخرة ولا يخافون أهوالها كبرا و عنادا و لا يجدى معهم تذكر .

ثم تأتى " كلا " الرابعة تكرارا للرد بالردع و الزجر لتأكيد استحقاقهم هذا الرد و الامتناع عن تحقيق مطلبهم لأنهم ما طلبوه إلا مراوغة للفرار من التصديق و الإيمان لا ليتذكروا و يتثبتوا و ما بعدها تأكيد على أن القرآن تذكرة أى هو كاف لأن يتذكر و يتعظ به ترغيبا وترهيبا لا شىء آخر كما يدعون من أنه سحر يؤثر و نحوه، وفى هذا

(١) سورة الإسراء آية ٩٣ .
(٢) الكشاف جـ ٦ ص : ٢٦٣ .

إقامة للحجة عليهم ، فليس لأحد أن يعتذر بأنه لم يجد مذكِرا و لا معرفا .

ويأتى وصل بالفاء على الفصول السابقة ترتيبا لما بعدها كالنتيجة لما سلف حيث يقول سبحانه : " فمن شاء ذكره " أى " فمن شاء أن يذكره و لا ينساه و يجعله نصب عينيه فعل فإن نفع ذلك راجع إليه "[1] فى الدنيا والآخرة .

ثم عطف عليه قوله : " و ما يذكرون إلا أن يشاء الله " فأفاد هذا العطف أن المشيئة المتقدمة للعبد هى من فعل الله . عز وجل . وبقدرته ركبها فى العبد ليجعله مختارا إذ لا يقع فى ملكه إلا ما يشاء سبحانه ، و من ثم كان أولى بالعبد أن يصدق ما أنزله الله تعالى وأن يتذكر و يعتبر إيمانا بالقرآن أو يكون المعنى : و ليس الأمر يسير وفق إرادتهم و مشيئتهم هم بل هو بمشيئة الله و تقديره فهو الذى ينفع بالتذكر و يقدر مدى كفايته ؛ لأن يتذكر به .

وقد جاءت الآية الخاتمة للسورة مناسبة لما مر كالعلة له و ورودها بالفصل بمنزلة التذييل لبيان تلك العلة ، فالله هو الحقيق بأن يتقيه عباده و يخافوا عقابه ، فيؤمنوا به و يطيعوه وهو أهل لأن يغفر لمن اتقاه ما سلف من كفره إذا آمن به و أطاعه ، أى هو أحق أن يتقى لمن يتقيه إيمانا أو يتقى عقابه رهبة منه ، وهو أحق أن ينتظر منه المغفرة والرحمة لمن يرجع عن غيه ويؤمن به ويطيعه ، وليس هناك سواه مَن يُتقى أو يُرجى .

وفى ذكر المغفرة ختاما إغراء بها للرجوع عن الجحود والعناد ، ودعوة لفعل ما يوجب القبول والغفران .

---

(١) الكشاف جـ ٦ ص : ٢٦٤ .

الخاتمة

الحمد لله أولا و أخيرا و الصلاة و السلام على رسوله الكريم وآله و صحبه أجمعين . أما بعد

فمن خلال ما مر يتبين لنا جملة من النتائج منها :

– إن الفصل والوصل هما محور بناء الأسلوب و طريقة توجيه الكلام و صحته البلاغية، ويجرى بناء عليهما الأساليب البلاغية المختلفة ؛ لذا لم يخطىء المتقدمون حين قالوا إن البلاغة هى معرفة الفصل من الوصل .

- أسلوب الفصل والوصل هو المؤسس لعملية النظم فهو الذى يضمن تآلف المكونات التركيبية وتقاربها وحسن سبكها و بناء العلاقات بين المفردات والجمل لأنه مبنى على وجود المناسبة و الجامع بين التراكيب .

– يمثل هذا الأسلوب نقطة الالتقاء بين البلاغة و النحو ؛ إذ كان يدرسه علم المعانى و يبنى على العطف الذى هو من موضوعات النحو ، وهنا يكمن الفرق بين البلاغة و النحو ، فعلم النحو يشترط فيه صحة التركيب فحسب أما علم البلاغة فيشترط صحة المعنى بعد مراعاة صحة التركيب و يراعى ما يرتبط بالمعنى من ذوق المتلقى و نفسيته و تلاؤم المعانى المبثوثة لذلك .

- لحروف العطف غير الواو معانى خفية تلحظ بالتمعن فى السياق و تعين فى إبراز وجه الربط ، بل إنها لتعين فى إضافة المعنى و انضمامه إلى ما قبله ، و من ثم ينبغى الالتفات إليها والاعتداد بها فى باب الوصل كالواو .

– إن المفردات مما يجب الاهتمام بأمر الوصل بينها بالعطف ليس فى ذات العطف نفسه لأن شأنه معلوم معها بل بالنظر إلى المتقدم و المتأخر ، لماذا ذكر المقدم أولا ؟ و لماذا كان التالى تاليا و

لم يكن أولا ؟ و لماذا ورد هذا مرتبا على السابق أو كان بينهما مهلة أو وقع التخيير بينهما أو أطلق العطف بينهما من دون تحديد أو تقييد و غير ذلك مما يرتبط بمعانى حروف العطف المختلفة ، كما ينبغى الاهتمام بأمر الفصل فيها كذلك والتوقف عنده لاستيضاح سببه، والموازنة بين ما أتى منها موصولا و مفصولا .

– يجب ألا يفرق بين الجمل التى لها محل من الإعراب و التى ليس لها محل حين دراسة هذا الأسلوب ؛ لأن التى لها محل تحتاج إلى ما يجلى سبب وصلها بما قبلها ، كما أنها قد تشير بمحلها الإعرابى إلى معنى هو أبعد مما فى السياق التى هى فيه أو قد تكون هى حلقة الوصل بين ما قبلها و ما بعدها أو أول السياقات وأواخرها كما فى عطف مجموعة تراكيب على مجموعة تراكيب أخرى أو عطف القصة على القصة .

-قد يأتى الاستئناف عن طريق بعض الألفاظ التى لها دلالات مخصوصة فى التعبير فتنضم دلالة الاستئناف إلى شىء من معانيها فيتنامى التعبير عن الغرض و يحسن مو ضع الاستئناف لحسن اجتماع هذه الألفاظ معه و بروز المعنى من خلالهما .

و خير مثال على هذا ماجاء منه فى سورة المدثر – على قصرها – فقد ورد متنوعا مرة عن طريق التشبيه ومرة عن طريق الردع بكلا وحدها و مرة بكلا مع الإضراب و غيره مما سبق الإشارة إليه .

– يجب ألا يتوقف فى معرفة الاستئناف البيانى عند توضيح تقدير السؤال و الإجابة بل الأفضل أن ينظر إلى ما وراء هذا التقدير مما يرجع إلى بيان المعنى المترتب عليه ، و التوصل إلى جمالية تأثير هذا التقدير فى المعنى ، و بهذا نستطيع أن نلمح أغراضا مختلفة فى سياقات متشابهة برز التقدير فيها واحدا .

المراجع

- القرآن الكريم .

١ - أثر النحاة فى البحث البلاغى – د/ عبدالقادر حسين – طبعة دار قطرى بن الفجاءة – قطر – ط ٢ – ١٩٨٦.

٢ - أسرار التكرار فى القرآن – محمود بن حمزة الكرمانى – دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا – طبعة دار الفضيلة – بدون تاريخ .

٣ - أسلوب الفصل والوصل فى القرآن الكريم – د/ شكر محمود عبد الله – طبعة دار دجلة – عمان – ٢٠٠٩ م .

٤ - إعراب القرآن المنسوب للزجاج – تحقيق إبراهيم الإبيارى – دار الكتاب المصرى – بدون تاريخ .

٥ - الإكسير فى علم التفسير – الطوفى البغدادى – تحقيق د/عبدالقادر حسين – مكتبة الآداب ٢٠٠٢م .

٦ - أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك – ابن هشام الأنصارى – طبعة دار الفكر العربى ١٩٧٤ .

٧ - بدائع التفسير – ابن القيم الجوزية – جمع وتوثيق يسرى السيد محمد – طبعة دار ابن الجوزى – ط١ –١٤١٤هـ – ١٩٩٣ م .

٨ - البلاغة العالية – علم المعانى – عبد المتعال الصعيدى – تقديم ومراجعة د / عبدالقادر حسين – طبعة مكتبة الآداب – ط ٢ –١٤١١هـ – ١٩٩٩١م .

٩ - بلاغة العطف فى القرآن الكريم دراسة أسلوبية – د / عفت الشرقاوى – طبعة دار النهضة العربية – بيروت – ١٩٨١ م.

١٠ - البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى – د / محمد أبوموسى – طبعة دار الفكر العربى – بدون تاريخ .

١١ - البيان والتبيين – الجاحظ – تحقيق عبدالسلام محمد هارون – طبعة مكتبة الخانجى – ط ٧ – ١٤١٨ هـ – ١٩٩٨ م .

١٢ - التبيان فى البيان – العلامة الطيبى – طبعة دار البلاغة – ط١ – ١٤١١هـ – ١٩٩١ م .

١٣ - تفسير أبى السعود المسمى إرشاد العقل السليم – أبو السعود محمد بن محمد – دار إحياء التراث العربى – بدون تاريخ .

١٤ - تفسير الجلالين – الإمام جلال الدين المحلى والإمام جلال الدين السيوطى – طبعة دار التراث بالقاهرة – بدون تاريخ .

١٥ - تفسير الفخر الرازى – طبعة دار الفكر العربى – ط١ ١٤٠١هـ – ١٩٨١ م .

١٦ - تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – تحقيق سامى محمد سلامة – طبعة دار طيبة – ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م .

١٧ - التفسير القيم – ابن القيم – جمع محمداويس الندوى – تحقيق محمد حامد الفقى – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت – بدون تاريخ .

١٨ - تفسير المراغى – أحمد مصطفى المراغى – طبعة مصطفى البابى الحلبى – الطبعة الأولى – ١٣٦٥ هـ– ١٩٤٦م.

١٩ - الجامع لأحكام القرآن – القرطبى – تحقيق عبد الله بن عبدالمحسن التركى – طبعة مؤسسة الرسالة – ط١ - ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦ م.

٢٠ - حاشية الشمنى على مغنى اللبيب – تقى الدين أحمد بن محمد الشنمى – المطبعة البهية بمصر – بدون تاريخ.

٢١ - درة التنزيل وغرة التأويل – الخطيب الإسكافى – دراسة وتحقيق د/ محمد مصطفى آيدين – طبعة جامعة أم القرى –ط١ – ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .

٢٢ - دلائل الإعجاز – الإمام عبدالقاهر الجرجانى – قراءة وتعليق محمود محمد شاكر – مطبعة المدنى –القاهرة – ط ٣ ١٤١٣هـ - ١٩٩٢ م.

٢٣ - دلالات التراكيب دراسة بلاغية – د/ محمد أبوموسى – مكتبة وهبة – ط ٢ - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م .

٢٤ - شرح الأطول – عصام الدين الأسفراييني – مطبعة السلطانية – تركيا – ١٢٨٤ هـ

٢٥ - شروح التلخيص – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت – بدون تاريخ .

٢٦ - صحيح مسلم – طبعة المطبعة المصرية ومكتباتها – بدون تاريخ .

٢٧ - الصناعتين – أبوهلال العسكرى – مطبعة عيسى الحلبى – ١٩٥٢م .

٢٨ - الطراز – الإمام يحيى بن حمزة العلوى – تحقيق عبد الحميد هنداوى – المكتبة العصرية – بيروت – ١٤٢٣ هـ-٢٠٠٢م.

٢٩ - عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص – بهاء الدين السبكى – طبعة دار الكتب العلمية – بيروت – بدون تاريخ .

٣٠ - علم المعانى – د / حمزة الدمرداش – دار الطباعة المحمدية – ط٣ – ١٤١٢هـ - ١٩٨٩ م .

٣١ - علم المعانى – د/ درويش الجندى – طبعة نهضة مصر – القاهرة – بدون تاريخ .

٣٢ - علم المعانى دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعانى – د/بسيونى فيود – مكتبة وهبة – ١٤٠٧ هـ .

٣٣ - علم المعانى فى التفسير الكبير للرازى وأثره فى الدراسات البلاغية – فائزة سالم أحمد – مخطوط رسالة دكتوراه – جامعة أم القرى – ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

٣٤ - علوم البلاغة – أحمد مصطفى المراغى – المكتبة المحمودية بمصر – ط٤ بدون تاريخ .

٣٥ - فتح القدير – الشوكانى - طبعة المكتبة العصرية – جدة – ط١ – ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧ م .

٣٦ - فى البلاغة القرآنية – أسرار الفصل والوصل – د/ صباح عبيد دراز – مطبعة الأمانة بمصر – ط١ - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

٣٧ - الكتاب – سيبويه – تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون – مكتبة الخانجى - بدون تاريخ .

٣٨ - الكشاف – الزمخشرى – تحقيق عادل أحمد عبدالموجود – على محمد معوض – ومراجعة د/ فتحى حجازى - مكتبة العبيكان - الرياض – ط١ – ١٤٢٨ هـ - ١٩٩٨ م .

٣٩ - الكشف والبيان المعروف تفسير الثعلبى - أبواسحاق أحمد الثعلبى - تحقيق الإمام محمد بن عاشور - طبعة دار إحياء التراث العربى - بيروت - ط١ - ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .

٤٠ - لسان العرب - ابن منظور - طبعة دار المعارف بمصر - بدون تاريخ .

٤١ - المثل الثائر - ابن الأثير - تحقيق د / أحمد الحوفى ، د/بدوى طبانة - دار نهضة مصر - ط٢ - بدون تاريخ .

٤٢ - المحيط فى الأصوات العربية ونحوها وصرفها - محمد الأنطاكى - طبعة دار الشرق العربى - بيروت - ط٣ - بدون تاريخ .

٤٣ - مسند الإمام أحمد - طبعة المكتب الإسلامى - ط٤ - ١٩٨٣م.

٤٤ - معانى القرآن - الفراء - طبعة عالم الكتب - ط٣ - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ م .

٤٥ - مغنى اللبيب - ابن هشام الأنصارى - تحقيق وشرح د/عبداللطيف محمد الخطيب - طبعة السلسلة التراثية - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م .

٤٦ - مفتاح العلوم - السكاكى - مطبعة التقدم العلمية بمصر - بدون تاريخ .

٤٧ - موجز البلاغة - العلامة الطاهر بن عاشور - طبعة النظارة العلمية - بدون تاريخ .